حركيّة التاريخ الرسالي في فكر السيّد فضل الله قدس سره



حسين منصور الشيخ

إصدار
المركز الإسلامي الثقافي
مجمع الإمامين الحسنين(ع) - لبنان - حارة حريك

بسم الله الرحمن الرحيم

حركيّة التاريخ الرسالي
في فكر السيّد فضل اللّه قدس سره

إعلاءٌ للقيمة ونبذٌ للخرافة

حسين منصور الشيخ

الطبعة الأولى

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

المقدّمة

حديث السيّد (رضوان الله عليه) عن الأنبياء حديثٌ دائمٌ عن الدّور و المهمّة والمنهج أكثر منه حديث عن ذاتيّاتهم، فيما هي الذاتيّة استغراقٌ في الشخصيّة بعيداً عن الرسوليّة، ومن هنا، يقول مُعِدُّ هذه الدّراسة الباحث الأستاذ حسين منصورالشيخ: «كان أهمّ معالم منهجيّة السيّد فضل الله (رض) دعوته إلى تسليط الضوء أكثر على الرسالة بما تحمله من مضامين قانونيّة و تشريعيّة و أخلاقيّة ترتفع بالمجتمع الإنسانيّ إلى السموّ و الرقيّ المعنويّ و الماديّ في علاقة الإنسان بأخيه الإنسان،دون أن تكون الرّسالة مجرّد حدثٍ من أحداث السّيرة الذاتيّة لذلك النبيّ أو هذا الإمام».

و قد أجاد المؤلّف في وقوفه عند آراء السيّد فضل الله(رض) فيما يتعلّق بمسألة الدور الرساليّ للأنبياء،عندما عرضها بأسلوبٍ علميٍّ دقيق مستنداً إلى الإرث العلميّ الكبير الذي تركه السيّد(رض) و هو تفسيره (من وحي القرآن).

و الخطوة العلميّة التي سار بها الباحث الأستاذ منصور الشيخ، تشجّعنا و جميع الباحثين للانكباب على دراسة فكر السيّد فضل الله (رض) الذي أغنى المكتبة الإسلاميّة بالمؤلّفات و الكتابات التي اتّسمت بلغةٍ علميّةٍ إسلاميّةٍ

إنسانيّةٍ حضاريّةٍ تحتاجها الأجيال في حاضرها و المستقبل من أيّامها...

و نحن في المركز الإسلاميّ الثقافيّ يسرّنا أن نكون من المراكز التي تُعنى بهذا الشأن واضعين كلّ إمكاناتنا في تصرّف العلماء و المثقّفين المستعدّين دوماً لنشر الفكر الإسلاميّ الأصيل...مع تسجيل شكرنا للثّقة التي أولانا إيّاها الأستاذ حسين منصور الشّيخ في نشر هذا الكتاب و مع الدعاء له و لكلّ العاملين بالتوفيق و النجاح و التسديد.

مدير المركز الإسلامي الثقافي

شفيق محمد الموسوي

جمادى الأولى١٤٣٢ هـ

أيار ٢٠١١ م

بين يدي البحث

لم تستقم الحياة الاجتماعية لبني الإنسان على هذه البسيطة منذ أن أنزله الله عليها، إذ كان القوي الفرد منهم يستعبد الضعيف المجموع، وهذا المجموع الضعيف كان يعيش حالةً من العفوية دون ناظم اجتماعي أو أخلاقي ينظّم حياته الاجتماعية، أو يخطّط فيها ليومه وغده.

وهي السيرة الاجتماعية التي لو ترك الله الناس عليها لأفنى بعضهم بعضاً، ولكنه تعالى ـ لطفاً بهم ـ أنزل عليهم ما ينظّم حياتهم الشخصية والاجتماعية فيما يكون لصالحهم العام، وهو ما يمثّل الأحكام والشرائع التي يجمعها عنوان: «الدين» الذي بُعث به جمعٌ من الأنبياء كانوا النموذج والقدوة في تطبيق هذه الشرائع التي تحكمها المبادئ والقيم المنسجمة والطبيعة الإنسانية.

وكان النبي الذي يبعثه الله تعالى لتبليغ قومه تعاليم الدين وقيمه السامية أول المطبقين والملتزمين بما ينادي به من أحكام ومبادئ عامّة، بحيث لم تكن النبوة حالةً من الزعامة الاجتماعية الصرفة، بل كانت - في عمقها الديني والأخلاقي-حالةً إنسانية عالية تمثّل قمة التزام القيم والمبادئ التي تبشّر بها، وفي ذلك يقول تعالى على لسان نبيه الكريم: ﴿وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾[١] حيث يشير النبي صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الآية إلى أنه أول من يلتزم تعاليم الدين الإسلامي، ليكون النموذج الأرقى في عنوان «المسلم»، إذ «ربما تكون

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٦٣.

هذه الكلمة [التي هي] من كلام الرسول ﷺ مما أراد الله له أن يتحدّث به ويعلنه من مواقفه؛ لأنه أول من آمن بالإسلام الذي جاء به، فقد كانت دعوته الناس إلى الإيمان بهذا الدين منطلقة من مبادرته إلى الإيمان به، فيكون ذلك إيحاءً بأن أيّ داعية إلى عقيدة أو فكرة لا بدّ له من أن يعيش فكر العقيدة في نفسه، قبل أن يدعو الناس إليها»[1].

وهذه القيمة الإنسانية التي كان يمثّلها الأنبياء لم يكن ليستوعبها بعض أتباعهم، ذلك أنّ ما وصل إلينا من التوراة والإنجيل يوحي بهذه الفكرة، إذ يعبر عن الصورة المرتسمة لدى بعض أتباع الديانتين اليهودية والنصرانية، بحيث لم يعد النبي ـ في التوراة أو الإنجيل ـ ذلك الإنسان الملتزم ما ينادي به من مبادئ وتعاليم إلهية، بل أصبح مجرّد زعامة دينية اجتماعية تتحكم فيها الأهواء والنزعات النخبوية في بعض صورها.

فنبي الله إسحاق بن إبراهيم عليه السلام الذي رزقه الله ـ حسب الرواية التوراتية في سفر التكوين ـ بولدين، هما: عيسو (الأكبر) ويعقوب (الأصغر)، يختار من يخلفه في النبوة بعده، وهو ابنه الأكبر عيسو، فيطلب إليه أن يصطاد له صيداً يأكله ليباركه قبل أن يحين موته. وفي هذه الأثناء تسمع أمه رفقة التي كانت تحب يعقوب أكثر منه ما دار بينهما، فتطلب من يعقوب أن يسبق أخاه إلى الحصول على البَرَكة، فينتحل شخصية أخيه، ويقبل على أبيه الذي كُفَّ بصره، فيأتيه بالطعام، ويحصل على البركة جرّاء ذلك، وحين يأتي المسكين عيسو بالصيد فرحاً يريد رضى نبي الله إسحاق وبركته لا يحصل عليها،

---

(١) من وحي القرآن، السيد محمد حسين فضل الله ٩/ ٣٩٥.

ويتولّد الحقد بينه وبين أخيه الذي سرق بركته المُستَحَقّة له، ويخرج إلى ديار الله هرباً من انتقام أخيه يعقوب عليه السلام[١].

إنّ ما تقدّمه هذه القصّة من فكرة حول الآلية التي يتمّ من خلالها اختيار النبي الذي يتحمّل مسؤولية تبليغ الرسالة، ومن ثَمَّ تطبيقها غير مبنية على أسس وقيم إنسانية منطقية، فالنبي السابق (إسحاق) هو من يختار سلفاً من يكون نبيّاً بعده، وأساس الاختيار لا علاقة له بمميزات وصفات تحتاجها عملية التبليغ والدعوة، كما أنّ البيئة التي ينتمي إليها من سيكون نبيّاً لاحقاً بيئة أسرية مفكّكة، والعلاقة فيها مبنية على المصالح، والنبي حينها سيكون مجرّد زعامة دينية اجتماعية تتحكم فيها أهواؤه ونزعاته في بعض صورها.

وهذا بخلاف الصورة التي يقدمها القرآن الكريم حول الأنبياء، منذ اختيارهم وحتى نجاحهم في الدعوة وانتقالهم إلى الرفيق الأعلى، حيث يمثّل الالتزام القِيَمي الصفةَ الأبرز في خط الدعوات النبوية فيما يستعرضه القرآن الكريم منها، وهي النقطة التي سينصبّ عليها حديثنا حول منهجية المرجع الديني السيد محمد حسين فضل الله رحمه الله في دراسته لهذه الظاهرة الدينية الأبرز.

وهذه الدراسة كما تسلّط الضوء على دور السيد فضل الله رحمه الله في إبراز الجانب القِيَمي العالي الذي طبع مسيرة الحركة الدعوية لأنبياء الله عليهم السلام، تقدّم عرضاً لأهم المعالم المنهجية التي تميّز بها سماحة العلاّمة في معالجة ظاهرة النبوّة في جانبها الحركي، وهي الزاوية التي أغفلتها الدراسات الكلامية.

(١) انظر: الكتاب المقدّس، العهد القديم، سفر التكوين، الإصحاح ٢٧.

تبويب الدراسة

جاءت الدراسة في فصولٍ خمسة، رتّبتها على النحو التالي:

الفصل الأول كان تمهيداً للحديث عمّا بذله السيد فضل الله من جهود في ترسيخ القيم على مستوى ساحتنا الإسلامية من خلال دراسته لحركة الدعوة النبوية، حيث تناولتُ (**دراسة السيد فضل الله للتاريخ الرسالي**)، وذلك في عنوانين رئيسيّين، كان الأول منهما حول منطلقات دراسة التاريخ الرسالي، وقد حصرتها في ثمانية عناوين فرعية تشكّل أهم المنطلقات والخلفيات النظرية التي ارتكز عليها سماحته في دراسته للتاريخ الرسالي، منتقلاً للحديث عن خطوات هذه الدراسة، وذلك من خلال مراجعتي لتفسيره القيّم (من وحي القرآن).

فيما كان الفصل الثاني بعنوان: (**الرسالة الإلهية بين الغاية والوسيلة**)، تناولتُ فيه أولى المسائل حول دراسة ظاهرة النبوة عند السيد فضل الله، وهي حول الهدف من بعث الأنبياء، حيث أشرتُ هناك إلى أنّ مما تناوله السيد حول هذه الهدفية، هو: تنمية القيمة الروحية، وبيان أنّ الأصل في الرسالات ما تحمله من فكر وليس ما نقدّسه من ذوات، نافياً أن يكون تعدّد الأديان بهدف إحداث أي نوع من التنازع والصراع بين الأتباع، مؤكِّداً في الوقت نفسه أنّ من أهداف الرسالات هو تحرير العقل ودعوته إلى مزيد من التفكّر.

وكان الفصل الثالث بعنوان: (**الشخصية النبوية روحٌ إنسانية مرتبطة بالغيب**)، تناولت فيه طبيعة العلاقة بين النبي وما يحمله من رسالة، حيث أشرتُ هناك إلى أنّ النبوة ميثاق وتكليف بين الله وأنبيائه، وليست مجرّد



منصب اجتماعي أو ديني، ومشيراً إلى أنّ الأنبياء يكمّل بعضهم بعضاً، والرسالة السابقة تغذّي اللاحقة، مبيّناً الروحية العالية التي يمارس بها النبي دوره في التبشير بالدعوة وما تتركه هذه الروحية من أثر على طبيعة العلاقة بين (النبي/ القيادة) و(القاعدة/ الجمهور)، ومنبّهاً إلى أهمية دراسة الشخصية النبوية في جانبها البشري، وهي النقطة التي أولاها سماحة العلاّمة السيد فضل الله جُلَّ اهتمامه في دراسته لظاهرة النبوة من خلال تحليله للكثير من المواقف التي استعرضتها الآيات القرآنية أثناء سرد القصص النبوي.

وفي الفصل الرابع (**حركية الدين في الواقع الإنساني**) تفرّع الحديث فيه إلى عناوين ثلاثة، تناولتُ في الأول منها العلاقة بين العقل والإيمان العقائدي، ومن ثَمَّ عن الدين في رعايته للمصلحة العامّة، خاتماً الفصل ببيان رأي السيد فضل الله في العلاقة مع الآخر في النظرة القرآنية. فيما خصّصتُ الحديث في الفصل الخامس عن (أخلاقيات المعارضين للدعوة) أشرتُ فيه إلى أنّ تكذيب الأنبياء ظاهرة تاريخية، وإلى أن هذا التكذيب لا ينطلق فيه المعارضون من منطق سليم يواجهون به منطق الدعوة، كما أنهم يتوسّلون في محاربة الدعوة بالوسائل غير المشروعة، ممثّلاً ببعض هذه الوسائل، وعارضاً لنظرة السيد حول هذه الأخلاقيات وما يخرج به ﴿رحمه الله﴾ من فوائد مهمّة للدفع بمسيرة الحركة الإسلامية المعاصرة في مواجهة الحركات والتنظيمات المواجِهة.

وفي ختام الدراسة، استعرضت أهم معالم منهج السيد فضل الله في ترسيخ القِيَم ونبذ الخرافة من خلال دراسة حركة الدعوة النبوية، فكان تلخيصاً لأهم الأفكار والآراء الواردة في طوايا هذه الدراسة.

وختاماً، لا بدّ لي أن أتوجّه بجزيل الشكر والامتنان لجميع من كان له فضل في إنجاز هذه الدراسة، وفي مقدّمتهم زوجتي العزيزة التي هيأت لي ظروف إنجازها في ظلّ الارتباطات والالتزامات الحياتية المعاصرة، فهي شريكتي الأولى من أول بذرة فيها إلى آخر زهرة، فجزاها الله عن ذلك خير الجزاء. كما لا يفوتني أن أتوجّه بالشكر الجزيل إلى الأستاذ علي الأصيل الذي أفادني كثيراً بملحوظاته القيّمة عندما تفضّل بقراءة مسوَّدة البحث كاملاً. آملاً في الوقت ذاته أن أفيد من ملحوظات الجميع بما يسدّد ويقوِّم ما فيه من عِوَج، فالكمال لله وحده.

حسين منصور الشيخ

القطيف، في: الأحد ٦/ ٥/ ١٤٣٢هـ

١٠/ ٤/ ٢٠١١م

الفصل الأول

دراسة السيد فضل الله للتاريخ الرسالي

المنطلقات والخطوات

منطلقات الدراسة

حركيّة التاريخ في الواقع المعاصر

لم تكن الظاهرة النبويّة حركة نخبوية أو حديثاً هُلاميّاً تتناقله ثقافات الشعوب والأمم فيما بينها فينقله السابق إلى اللاحق، بقدر ما هي ظاهرة واقعية انطلقت من مجريات الظروف الاجتماعية التي كانت تحكم طبيعة ومستلزمات تلك الحركة، بحيث كانت تختلف بحسب الزمان والمكان المحيطين بها.

وهذه الظروف المحيطة يمكن إسقاط الكثير من تنوّعاتها على ما نعيشه اليوم في واقعنا المعاصر، إذ لا نعدم أن نجد تشابهاً بدرجةٍ ما لتلك الظروف التي عاشتها حركة الدعوة عند الأنبياء، وهو الأمر الذي نجد العلامة فضل الله مركِّزاً عليه في تناوله لسِيَر الأنبياء والمعصومين ﷺ، ذلك أنه يؤمن بحركيّة قِيَم ومبادئ الدعوة النبوية، وبخاصّة أن من أهم المميزات الشخصية التي اتّسم بها المرجع الراحل ﵀ هو حضوره الجماهيري اليومي الذي واظب عليه حتى بعد تسنّمه مهام المرجعية الدينية، مع ما يتطلّبه ذلك من جهد مضاعف بسبب تضاعف وتعدّد المهام.

وهي الحالة التي كانت تتطلب منه العطاء الفكري والتوعوي اللحظي بما

يتناسب والظرف الاجتماعي أو المناسبة الدينية، وكذلك بما يتناسب والدور الثقافي الذي كان يمارسه.

لذلك ليس بمستغرب أن نجد كمّاً كبيراً من المحاضرات الثقافية التي تناول فيها العديد من الموضوعات الدينية، فكان قسمٌ كبيرٌ منها يعالج مسألة حركة الدعوة عند الأنبياء وما يمكن استيحاؤه منها بما يخدم الحركة الإسلامية المعاصرة.

ولكنه في استعراضه لمجريات حركة الدعوة النبوية لم يكن مستجيباً لمقتضيات الخطاب الديني الجماهيري فحسب، وإنما كان ـ بالإضافة إلى ذلك ـ مرتكزاً على خلفية نظرية أسّس ونظّر لها مسبقاً، تقوم على أسس محدّدة، نستعرض هنا بعضاً منها، وهي كالتالي:

أ) حضاريّة إحياء التاريخ واستحضاره في الواقع

غالباً ما تهتمّ المجتمعات البشرية بإحياء ذكريات وأمجاد أبطالها، بما فيها المجتمعات الدينية، وهي المجتمعات التي غالباً ما تمجّد قادتها الدينيين، فتقيم لذكراهم العديد من مظاهر الاحتفاء والتكريم، وهي حالة حضارية في حال كانت هذه الذكريات محطّةً اجتماعية يستلهم منها أبناء المجتمع القيم والمبادئ التي تَمَثَّلها ذلك البطل أو القائد، وهي النقطة التي يشير إليها علاّمتنا السيد فضل الله، وذلك في حديثه عن إحياء أيام عاشوراء، وهو الموسم الديني الذي يحرص أتباع مذهب أهل البيت على إحيائه كل عام، فيقول حول هذه النقطة: «إنّ مسألة استعادة التاريخ عن طريق إحياء ذكراه هو أمر إنساني حضاري تحافظ عليه الشعوب والمجتمعات

على اختلاف اتجاهاتها وثقافاتها، حيث نجد العالم كله يحتفل في كل سنة بذكرى قد تتصل بانتصار وطني أو قومي في معركة قد ترقى إلى مئات السنين، ... وليست احتفالات الاستقلال التي تحييها الدول إلا شاهداً ودليلاً على تجذّر هذا السلوك في الوجدان الإنساني العام.

ثم إن الحاضر ـ في كل مواقعه ـ لا يعيش انفصالاً عن التاريخ، حيث نجد أن الإنسان الذي يحاول أن يؤكّد نفسه ويؤصّل مرحلته ويركز خطواته في الاتجاه الذي يريده في تقدّمه وتطوّره، يشعر بأن في التاريخ نقاطاً مضيئة تبقى حاجة لكل مرحلة يعيش فيها نوعاً معيناً من الظلام، أو أن فيها درساً يرتبط بالحياة كلها ولا يقف عند مرحلة معينة، ... كل ذلك يجعل من مسألة استعادة التاريخ أمراً حيويّاً ذا فوائد كثيرة في حياة الإنسان»[١].

ب) التاريخ مصدر للفكر وليس للخرافة

بسبب ارتباط الدين بالوجدان الشعبي العام، فإن الفكر الديني السائد ـ بما يحمله من سِيَر تتناقلها المجتمعات ـ لا يمكن ضبطه بقواعد علمية محدّدة لا تخرج عن إطارها، بل تشوبه الكثير من المغالطات، لذلك قد يكون التاريخ الديني في كثير من الأحيان مصدراً للخرافة والأساطير غير الواقعية، وما يدعو إليه السيد فضل الله أن يكون التاريخ الديني مصدراً للفكر الواعي، وذلك من خلال دراسته دراسة نقدية علمية، يقول في ذلك: «إذا كان التاريخ مصدراً للفكر والمعرفة، فإننا ملزمون بدراسة التاريخ دراسة نقدية، فلا يكفي أن نأخذ التاريخ كما نقله إلينا الناقلون، بل علينا أن ندرس التاريخ

(١) نظرة إسلامية حول عاشوراء، السيد محمد حسين فضل الله ١٠ ـ ١١.

لنرى هل أنّ أحداثه تنسجم مع المعقول أو لا تنسجم؛ لأن بعض الناس قد ينقل لنا التاريخ الخرافي على أنه حقيقة، ثم هل ينسجم هذا التاريخ مع وقائع الأشياء ومع الظروف الموضوعية التي أحاطت بالحادثة التاريخية أو لا ينسجم؛ لأن الكثير مما ينقله الناس من التاريخ - ولا سيما التاريخ الذي يملك في نفوس الناس بعض القداسة العاطفية - ربما إذا درسته دراسة تحليلية نقدية رأيت أنه لا ينسجم مع طبيعة الظروف التي أحاطت به»[١].

...

ويقول (رض): «ثم إذا كان ما يُنْقَل لنا تاريخاً واقعيّاً صادقاً خارج نطاق الخرافة واللامعقول، فإننا بعد كل هذا نتعاطى معه على مستوى العبرة والعظة والاستذكار مما يمكن أن يبقى في الحياة ليكون درساً في الحياة ﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[٢] ويستنتجون، ليأخذوا الدرس بعد ذلك، ﴿وَكَذَلِكَ نفَصِّلُ الآيَاتِ﴾[٣]، ... إنّ مسألة الفكر هي من المسائل التي تمثّل مسؤولية الإنسان في فهم نفسه، وفي فهم التاريخ، وفي فهم الواقع من حوله، وفي فهم الظواهر الكونية»[٤].

وهذه نقطة جديرة بالاهتمام، ذلك أن الكثير ممن يهتمّون بدراسة التاريخ يجدون بعض الوقائع التي لا يكون مستندها التاريخي مقبولاً، مع قبولها ورواجها بين المتدينين، ما يجعل الدارس أمام مهمّة صعبة حينما يجهر بنتائج دراساته التي قد لا تنسجم والطرح العام. وفي هذه النقطة يُحسب

---

(١) علي ميزان الحق، السيد محمد حسين فضل الله ٣٢١.

(٢) سورة الأعراف، الآية: ١٧٦.

(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٥.

(٤) علي ميزان الحق، السيد محمد حسين فضل الله ٣٢٢.



للعلاّمة فضل الله شجاعته في التعبير عن آرائه، فقد كانت شجاعته العلمية من بين أهم سماته، فَـ «المتتبّع لبعض آراء السيد فضل الله الاجتهادية ينتهي بسهولة إلى تميّز السيّد بشجاعته العلمية التي لا تمنعه من إطلاق الفتوى والثبات عليها ما دامت تمثّل قناعةً علميّةً لديه، مهما كان الطرف المعارض لها ... ويرى المراقبون أن السيّد استطاع بثباته وشجاعته العلمية أن يُشيع هذه الروح، ويدفع عدداً من العلماء إلى الاقتراب من وجهة نظره»[١].

ج) الرسالة مقدَّمة على الرسول

لعلَّ كثيراً من التعاليم الدينية - وبخاصّة منها الجوانب الاجتماعية الخيرية-مما لا يُختَلَف عليه بين المتديِّنين وغيرهم، هي محلّ إجماع واتفاق بين الفريقين في أي مجتمع، بل إنَّ غير المتديّن ينظر بإيجابية كبيرة لحضور هذه المسائل بمساحة واسعة ضمن التعاليم الدينية، ولكن ما يبعد البعض عن الدين وينفِّرهم منه هو الجانب الغيبي منه، وفي كثير من الأحيان هو طغيان هذه الحالة لدى مجتمع المتدينين، وكذلك إضفاء الصفات البطولية الخارقة على الأنبياء والصالحين، ولكننا حينما نحاول أن نفهم أسباب شيوع هذه الظاهرة عند مجتمع المتدينين، نجد أن من بين أسبابها نقطة مهمّة يشير إليها السيد فضل الله، وهي أهمية التركيز في دراسة ظاهرة النبوة على الرسالة لا على الرسول الذات، فيقول رحمه الله: «إننا نلاحظ أننا ندرسه [تاريخ الرسالات الإلهية] بشكل تقريري جامد، ينقل القصة من خلال استيحاء قداسة الرسول لا قداسة الرسالة، أو بالأحرى من خلال تنفيذها بشخصية

(١) محمد حسين فضل الله .. العقلانية والحوار، مجموعة من المؤلفين ٩٨ ـ ٩٩.

صاحب الدعوة، من غير التفات إلى حركة الرسالة وشخصيتها كسيرة ذاتية للرجل لا للرسول، حتى إن الرسالة تمثل - في طريقة العرض - حدثاً من أحداث حياته الخاصة، أما أخلاقه وأساليبه في العمل فهي من مميزاته الفريدة التي لا يمكن لأحد أن يبلغ شأوها، أو يقترب من مستواها، فلذا لا مجال - لدى هذا الاتجاه - من الاحتجاج على أتباع الإسلام بأخلاق النبي وأعماله؛ لأن تلك المميزات من خصائصه الذاتية، وليست ميزة إسلامية يمكن للآخرين أن يحتذوها ويقتدوا بها في حياتهم العامّة كمسلمين يعملون على التدرّج في مدارج الكمال.

وقد شارك هذا الاتجاه في تركيز العلاقة بين الأنبياء وأتباعهم على أساس شخصي، مما جعل التقديس الروحي يتّجه إلى الأشخاص، أكثر مما يتّجه إلى الرسالة»[١].

ويضيف في موضع آخر، فيقول: «إن التركيز على الرسالة في دراسة تاريخ أبطال الإسلام أهم، وذلك لتكون الدراسة سبيلاً إلى معرفة تأثير الرسالة على حياتهم وسلوكهم وقيمته ومقداره، وأثرهم في حركتها وقوتها وتطورها، مما يجعل مفتاح الدخول إلى حياة الشخص رسالته، وليس العكس ... وقد نستطيع بذلك أن نفهم أبطالنا فهماً جديداً لا يبتعد عن الواقع ولا يقترب من الأسطورة، مما يؤدّي إلى فهم جديد لبعض مفاهيم الرسالة وأوضاعها من خلالهم، ويغلق الباب أمام عبادة الشخصية لدى المسلمين»[٢].

(١) خطوات على طريق الإسلام، محمد حسين فضل الله ٤١٢ ـ ٤١٣.

(٢) م. س ٤٢٩.

إننا في حال سلّطنا الضوء في دراسة حركة الدعوة على الرسالة وما تحمله من قيم ومبادئ وفكر سنجد أن مسار الأمور في هذه الدراسات سيختلف عمّا هو عليه الآن، وسيشكّل ذلك مزيداً من الوعي لماضينا، ما سينعكس إيجاباً على حاضرنا.

د) استيضاح ما يفصل بين النظريّة والتطبيق

الدين الإسلامي الذي يحتكم إليه المجتمع المسلم يحتوي على العديد من الأحكام والأسس والقيم والمبادئ التي يمكننا أن نستمدها من نصوصه الشريفة في القرآن والسنة، ولكن الآلية الصحيحة لوضع هذه القوانين والمبادئ موضع التنفيذ تحتاج في ضبطها وتطبيقها تطبيقاً صحيحاً إلى نموذج نحتذي به ونؤسِّس حركة واقعنا ومستقبلنا عليه، وهو ما نستفيده من دراستنا لتاريخ الحركة النبوية، وهي مسألة يركّز عليها العلاّمة السيد فضل الله رحمه الله، إذ يقول حولها: «وربما تظهر قيمة هذه الدراسة في تحديدنا الخطوط الفاصلة بين النظرية والتطبيق، فقد تنطلق التجربة في سلوك النبي من حيث هو مشرِّع يرسم خطّاً عريضاً لا يخضع للحدود المعينة التي تحدّد الفكرة في إطار المناسبة، وقد تنطلق في سلوكه، من حيث هو داعية ينطلق في حركته من دراسة المبدأ والواقع في عملية تطبيقه تستمد عناصرها من الظروف والأوضاع الآنية المحيطة بالتجربة .. وقد تتمثّل في التجربة سلوكية الحاكم الذي يتحرّك من خلال السلطة التنفيذية الممنوحة له من الله بما رآه من وجه الحق في القضية»[1].

---

(١) م. س ٤٢٦.

ثم يشير في هذه النقطة إلى مسألة مهمّة، إذ يقول: «إن علينا أن ندقّق كثيراً في هذه الجوانب عندما نريد أن نقرّر أي حكم أو مفهوم أو موقف على أساس التجربة لئلاَّ نقع في خطأ الخلط بين جهات انطلاق التجربة من حيث الصفات المتنوّعة التي تحكم شخصية النبي الذي اجتمع له ما لم يجتمع لنبي قبله من الصفات العملية، فقد كان يتحرّك من خلال صفة الرسول والداعية والمشرِّع والحاكم، ولكل واحدة من هذه الصفات أسلوب يختلف عن أسلوب الآخر، وحكم يختلف عن حكمه»[1].

هـ) الأنبياء بين عظمة الشخصية والبطولة الأسطورية

كانت «معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء - أمثال: عُمُرُ نوح، وفوران التنور بطوفانه، وتحوّل نار النمرود مع إبراهيم إلى بَرْد وسلام، وقصّة قصر بلقيس، وعصا موسى، وكذلك خَلْقُ الكون وإلخ ... قبل التاريخ المدوَّن، و[لذلك] لم نعثر على ما يشير إلى شيء منها من آثار، وإنما تعرفناها من الكتب الدينية والحكايات الأسطورية، وهي بهذا تدخل إطار الغيبيات»[2].

وبسبب هذا التداخل بين الغيبي الخارج عن المألوف والطبيعي وبين مجموعة من الحكايات الشعبية الأسطورية، أصبح المتدينون يتناقلون صورةً عن النبي والولي أشبه بصورة البطل الأسطوري، ولذلك عندما ندرس الحركة النبوية يشدّد السيد فضل الله رحمه الله على أهمية التمييز بين صفات العظمة وبين ما ينسب إلى النبي من أمور أسطورية لا يمكن قبولها عقليّاً أو أخلاقيّاً

(١) م.ن.
(٢) أصول البحث، الدكتور عبد الهادي الفضلي ١٦.

أو دينيّاً، يقول في ذلك: «وربما كان من الإخلاص لهذه الدراسة أن نترك الطريقة التي اعتمدناها في دراستنا لأبطال التاريخ الإسلامي من حيث التأكيد على الجانب الذاتي، واعتبار الجوانب الرسالية مجرّد صفات ذاتية ترفع من مستوى البطولة فيه .. مما قد يؤدي إلى قبول أي حديث مهما كان ضعيفاً إذا كان متعلّقاً بجانب من جوانب العظمة الشخصية في حياته، حتى ولو كان على حساب القيم الإسلامية، كما تراه في الأبحاث التي تتوفر على دراسة السيرة لكثير من أبطال هذا التاريخ من الأئمة والصحابة وغيرهم، فينسبون إليهم بطولات لا أساس لها، وفضائل وكرامات لا مبرر لها، استناداً إلى أحاديث ضعيفة يرويها الكاذبون والوضاعون والغلاة ممن لا يخافون الله فيما يروون وفيما يحدّثون»[١].

ثم يشير إلى خطورة شياع هذه الظاهرة في دراسة الحركة النبوية، فيقول: «وليست القضية كما يزعم هؤلاء من أنها لا تشكّل خطورة على الإسلام، بل ربما كانت الخطورة فيها بشكل أكبر وأشد؛ لأن الارتباط بالأشخاص من خلال هذه القيم المفتعلة الموضوعة يوجب ارتباطاً بكل ما يفكرون به ويعملونه أو يقولونه، ولأن افتعال القيم يفسح المجال لولادة تقييم منحرف ينعكس على طريقة الحكم على الأوضاع والأشخاص مما يوجب الإساءة إلى بعض الذين يفتقدون هذه الصفات، وإعطاء الذين يجدونها أكثر مما يستحقون»[٢].

(١) خطوات على طريق الإسلام ٤٢٧.
(٢) م. س ٤٢٨.

و) منطلق للعمل الإسلامي المعاصر

عاشت المجتمعات الإسلامية ردحاً من الزمن والحالةُ الدينيةُ فيها أشبه ما تكون بالطقوسيات الرتيبة، إلا ما ندر من بعض الأنشطة الدينية والثقافية الاجتماعية، إلى أن ظهر في العصر الحديث (أو ما عُرِفَ بعصر النهضة) بعض الدعاة التنويريين أمثال جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده، وتلاهما كوكبة من أعلام النهضة والإصلاح في العصر الحديث، وهو ما مهّد لظهور صحوة إسلامية معاصرة تنشد تطبيق تعاليم الإسلام بروح معاصرة، وكان دعاة هذه الحركة يشيدون أُسُسَها مركّزين على نقطة مهمّة، وهي أنها امتداد للتاريخ الديني الإسلامي مؤصلين لها بعدد من الدراسات المهمّة، وكان من بين أعلام هذه الحركة ودعاتها المؤصلين لمسيرتها العلامة السيد فضل الله، حيث نجده يؤكّد هذه الفكرة، وذلك بقوله: «لم يكن العمل الإسلامي بدعاً من الأعمال لنبحث له عن جذور جديدة، أو بالأحرى لنعمل من أجل أن نمدّ له جذوره في أعماق الحياة، بل هو امتداد للعمل الرسالي الذي تمتدّ جذوره إلى الأعماق البعيدة في غور التاريخ؛ لأنه يرتبط بتاريخ الرسالات والنبوات الغنية بالتجارب العملية في مجال الدعوة، أسلوباً وحركةً وجهاداً وتضحيةً في سبيل الله، ويرتبط بالرسالة الإسلامية في حركتها المنطلقة في حياة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في رسالته وجهاده وتضحيته وطريقته في الحياة وفي أسلوب العمل وطريقة التبليغ، وفي حياة الأئمة والصحابة والمجاهدين والعلماء العاملين والدعاة المسلمين في كل زمان ومكان، ...

ولا بدَّ لنا أن نلتفت إلى كل التجارب الماضية في مجال الحركات الرسالية،

ولا نغفل ما رافقها من نكسات وانتصارات وما تبعها من أرباح وخسائر، وما طرأ عليها من مفاهيم موافقة للخط الرسالي أو مخالفة له ... فقد يكون لذلك كله تأثير على طبيعة العمل في إطار الفكرة أو على طبيعة الحركة في إطار الأسلوب، أو على طريقة الممارسة في نطاق التطبيق؛ لأن ذلك يمثل بعضاً من ثقافة أفراد الأمة ومن انتماءاتها ومن رواسبها المختفية في اللاشعور التي تترك بصماتها على حركة العمل المعاصر»(١).

وفي موضع آخر يقول: «علينا أن ندرسه [تاريخ الأنبياء] بالروح التي تعمل على أن تستلهم تجاربه الناجحة في تجاربنا العملية، ونستوحي من خطواته المتعثرة ما يجنبنا من الوقوع في عثرات الخطوات المماثلة، مع استبعاد القضايا التي تخضع لحدود الزمان والمكان، فلا تمتدّ إلى غير مرحلتها الزمانية، ولا تتسع لغير ظروفها المكانية ... لتبقى لنا النتائج العامّة الشاملة التي تحتضن كل تطورات الحياة، وتظل في عناصرها الأساسية فوق قوانين التغيُّر والزوال، لأنها تخاطب الإنسان في حدود إنسانيته وجوهرها الأصيل»(٢).

ز) المنهجية المقترحة في دراسة حركة الدعوة

التاريخ جزءٌ مهم من حضارة الأمم والشعوب، ولذلك فإن استحضار التاريخ بصورة صحيحة وواعية له دوره في استنهاض قوى المجتمع لخلق حاضر ومستقبل جديد ومشرق.

---

(١) م. س ٤١١ ـ ٤١٢.

(٢) م. س ٤١٧.

ولذلك فإن من أهم منطلقات العلاّمة السيد فضل الله رحمه الله في دراسة تاريخ النبوات هو ما يمكن ملاحظته على هذا التاريخ من تزييف وتشويه لا يقدِّم الصورة الصحيحة لواقع حركة الدعوة عند الأنبياء، وهي حالٌ لا يمكن تجاهل آثارها على المستويات: الاجتماعية والثقافية والدينية والفكرية.

وعلى ضوء هذه الفكرة، يحاول رحمه الله الانطلاق نحو دراسة تاريخنا الرسالي ليقرأه على «هديٍ من وعي وعمق ومعرفة في هذه المرحلة التي نحاول فيها العودة إلى الشوط من جديد - بعد أن غُيِّبْنا عنه مدّة طويلة - لنحمل مشعل الكرامة والعدالة الإنسانية في رسالة السماء إلى الأرض»[١].

والسيد رحمه الله يؤكّد - في هذه النقطة - أهمية إعادة النظر في المنهجية المتّبعة في دراسة التاريخ الرسالي، ويشدّد على أن هذه المسألة ليست «مجرّد ترف ذهني، ودراسة مجرّدة، وإنما هي ضرورة حتمية، وواجب حيوي لمرحلتنا الحاضرة، بل نستطيع القول إنّه من أبرز الواجبات الملقاة على عاتق المسؤولين عن قضية الإسلام، [وذلك] بالنظر إلى أنّه سِجِلٌّ للمعركة التي خاضها الإسلام [والأديان السابقة] ضدّ خصومه وأعدائه، وقد عَلِقَ به ما علق بكثير من مفاهيم الإسلام من شوائب وألوان دخيلة بسبب ما حلّ بالمسلمين من ارتباك واضطراب»[٢].

ولدراسة هذا التاريخ العطِر لأنبياء الله ومسيرة دعواتهم المباركة وبخاصّة سيرة نبينا الكريم محمد صلى الله عليه وآله وسلم لارتباطنا المباشر بهذه الدعوة،

---

(١) في رحاب أهل البيت، السيد محمد حسين فضل الله ج١/ ١٦.
(٢) م.ن.

يقدّم السيد فضل الله ملحوظات مهمة حول كتابة التاريخ الإسلامي، يشير إلى بعضٍ منها، فيقول:

«ويبدو لنا أن علينا - قبل كل شيء - أن نلاحظ الأمور التالية لقراءة التاريخ قراءةً متأنية وواعية:

أن نتخلّى عن الهالة القدسية - باستثناء ما ثبت من سيرة الرسول ﷺ والمعصومين عليهم السلام - التي نحاول أن نحيط بها هذا التاريخ بكل ما فيه من انحرافات وأخطاء؛ لأننا لن نحصل على فائدة من دراستنا بدون ذلك، بل القضية ستكون عكسية؛ لأن هذا الأسلوب يؤدّي إلى تقديس الأخطاء، وفي هذا ما فيه من الانحراف عن الغاية التي نسعى إليها، والهدف الذي نهدف إليه.

إن كثيراً من القضايا والملابسات التي حدثت في الصدر الأول في الإسلام والانقسامات التي ابتلي بها المسلمون أثّرت على سير هذا التاريخ في عصر الرسالة، وقد خلقت عندنا كثيراً من المؤرخين المرتزقة الذين كانوا يعيشون على موائد الملوك، وعلى الباحث الإسلامي هنا أن يراعي هذا الواقع الذي عاش فيه التاريخ الإسلامي، ليسير في بحثه بهدوء وحذر ويقظة متناهية، لئلاّ يقع في الخطأ من حيث لا يعلم وينحرف عن الدرب من حيث لا يريد.

دأب كثير من الباحثين ـ ولا سيما المستشرقين ـ على اعتبار التصرفات التي تقوم بها الجماعات التي تدين بالإسلام ممثّلةً لوجهة النظر الإسلامية، مهما كان لونها أو نوعها، وهذا خطأ، ذلك أن الجماعات الإسلامية والمسؤولين المسلمين الذين عاشوا في التاريخ الإسلامي ليسوا إلا أناساً كبقية الناس، لهم أخلاقهم الخاصّة وطباعهم وأذواقهم المعينة، وليس لها

علاقة بالإسلام إلا بمقدار قربها من مبادئ الإسلام ومفاهيمه. ولهذا فإننا لا نستطيع اعتبار أي تصرّف من تصرفات المسلمين - باستثناء المعصومين عليهم السلام - مرتبطاً بالإسلام إلا بعد مقارنته بالمفاهيم والمبادئ الإسلامية، لنعلم مدى موافقته لها. إن مبادئ الإسلام ومفاهيمه هي المقياس الصحيح الذي نقيس به تصرفات المسلمين لا العكس.

حتّى الآن لا نزال نقرأ التاريخ الإسلامي في صورة حوادث معيّنة متعاقبة، تعيش في نطاق معيّن، هي الشعوب التي تدين بالإسلام، فنقرأ الحياة الاجتماعية والسياسية والثقافية التي تسود تلك المجتمعات، كما نقرأ العلاقات والارتباطات التي حدثت بينها وبين المجتمعات الأخرى، وطبيعة التفاعلات والتأثيرات التي نشأت من خلال هذه العلاقات والارتباطات، ولكننا لا نقرأ صورة الناس المسلمين الذين ترتبط حياتهم بالإسلام وتتأثّر به، فهذا ما لا نلمحه في هذا التاريخ، ولذا فقد عادت المعرفة التاريخية لدى القارئ المسلم غير ذات أثر إلا من خلال إثارة الزهو الذاتي، تثيره فيه قراءة هذا التاريخ وما فيه من أمجاد، نتيجة ارتباطه بأشخاص هذا التاريخ برابطة الدين تماماً كما يحسّ الإنسان بالزهو عندما يُعرَض أمامَه أمجاد آبائه وأجداده .. ولا شيء آخر غير الزهو.

إذا وعينا طبيعة المعرفة التاريخية التي تقدّمها لنا دراسة التاريخ، وعلاقتها بالواقع الحياتي الذي نعايشه، سيكون ذلك وسيلة لفهم طبيعة المشكلات الحاضرة التي يتخبّط فيها الواقع الإسلامي»[1].

---

(١) في رحاب أهل البيت ١/ ١٧ ـ ٢٤، بتصرف.

وبعد الإشارة إلى هذه الملحوظات المهمّة، يستعرض رحمه الله بعض المقترحات لدراسة التاريخ الإسلامي، حيث يدعو إلى «دراسة التغيير الذي أحدثه الإسلام في واقع المجتمعات التي آمنت به، ونوعية الظروف التي هيّأت له، وطبيعة الأساليب التي استخدمت في سبيل الوصول إليه. ثمّ نحاول تعرّف تلك الانحرافات التي حدثت، والأخطاء التي ارتكبت ودوافعها، ونتائجها، ثمّ نسير مع التاريخ في حوادثه وحركاته، فنلاحظ مدى علاقاتها وارتباطها بالمفاهيم الإسلامية، وعلاقة تلك المفاهيم بها، وكيف تمثّلت الناحية التطبيقية للإسلام في هذا التاريخ، ومدى التأثير الذي أحدثه هذا الاختلاف أو الانسجام في تمثّلها الحياتي لدى الناس، لنصل بعد ذلك إلى معرفة النكسات التي تعرّض لها التاريخ وعلاقتها بالإسلام ومفاهيمه، من حيث بعدها عنه وقربها إليه وعياً وتجربة»[١].

وقد لخّص السيد محمد طاهر الحسيني نظرية السيد فضل الله في دراسة التاريخ الرسالي للأنبياء عليهم السلام في دراسته عن تفسيره (من وحي القرآن)، حيث يشير إلى أن السيد قد «تحدّث عن الشخصية النبوية في اتجاهين:

أحدهما الشخصية النبوية الرسالية، وثانيهما الشخصية البشرية، وذلك تبعاً لما عليه الرؤية القرآنية في معالجتها لهذه المقولة الفكرية.

ويمكننا أن نحدّد العناصر الأساسية التي يشير إليها السيد فضل الله وفقاً للاتجاه الأول المشار إليه بالتالي:

---

(١) م. س ١/ ٢٥.

الشخصية النبوية شخصية غير عادية في ملكاتها الروحية والفكرية.

بل هي شخصية لا يمكن أن تلتقي مع الباطل مطلقاً، وعليه فلا يلتقي النبي مع الباطل لا في فكره ولا في جسده، وهذا يعني «عصمته».

وشخصية متميّزة من هذا القبيل هي القدوة والنموذج والأسوة في القول والعمل.

وفي الاتجاه الآخر تظهر بشرية النبي، وبما لا يضرّ بعصمته ودوره لتغيير العالم والبشرية، وتبعاً للرؤية القرآنية يتحدّث السيد فضل الله في عدّة مواضع من تفسيره «من وحي القرآن» مشيراً إلى هذه الفكرة، لافتاً أنظار علماء الكلام إلى دراستها والتأمّل فيها وفقاً للرؤية القرآنية أولاً، ثمّ دراستها وفقاً لما ورد في الروايات.

ويمكن تحديد عناصر الوجه الثاني في شخصية النبي - أعني البشرية وما يتّصل بها من شؤون - بالتالي:

إنّ النبي بشر وليس من جنس الملائكة أو من المخلوقات الغيبية الغريبة عن الناس في جنسهم وطبيعتهم وأشكالهم وطاقاتهم.

ولما كانوا من البشر فكان لا بدّ أن تلحقهم الشؤون البشرية من ألمٍ وفرح وضيق وخوف وجوع ومرض وموت وفناء.

إنّ النبي لا يتّصف بأي صفة من صفات وخصوصيات الإله، ولم يَحُلّ فيه جزء من الآلهة كما كانوا يتصورون.

إنّ قدرته قدرات بشرية، وإذا كانت السماء في مقام تأييده ودعمه وتسديده فإن ذلك لا يتمّ وفقاً لآليات غريبة عن آليات البشر إلاَّ في حدود المعجزة والكرامة، ولذلك كان الأنبياء يجهدون في الوصول إلى أهدافهم بوسائل بشرية، وكانوا يتحمّلون من ذلك ما يتحمّلون.

ولذلك لخّص السيد فضل الله الرؤية القرآنية في هذه المسألة بالذات في نقطتين:

الأولى : إنّ النبوة تلتقي بمواقع الضعف البشري في الإنسان في أكثر من موقع، ولا تفرض الكمال الذي يبتعد عن المواقع الطبيعية لديه.

الثانية: إنّ القرآن لا يريد أن يعطي النبي هالةً مقدّسة غائمة في مجال التصوّر، بل يريد أن يدفع بالتصوُّر إلى أن يتحرّك بشكل طبيعي في فهم الشخصية من خلال البعد الظاهري الذي يكشف عن العمق الداخلي من خلال الوسائل العادية التي يملكها الناس في معرفة العمق من مظاهر حركة السطح، بعيداً عن الجانب الخفي الذي لا يملك الناس الوسيلة لمعرفته، بحيث لو كان ذلك الجانب موجوداً، لما كان هناك تكليف بالاعتقاد به»[١].

ح) الانسجام بين الرؤية ومواقع العمل

نشأ السيد محمد حسين فضل الله في مدينة النجف الأشرف بالعراق طالباً للعلوم الدينية، فانخرط في جوّها العلمي والثقافي والحركي، وكان

(١) مطارحات في قضايا قرآنية، السيد محمد الحسيني ١٦٢ ـ ١٦٩، مع بعض الاختصار والتصرُّف.

ذلك إبّان نشوء الحركة الإصلاحيّة التي عاشتها الحوزة العلميّة النجفيّة على يد العديد من رجالات الإصلاح الذين عاصرهم السيد فضل الله، من أمثال: الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء، والسيد محسن الحكيم، والشيخ محمد رضا المظفّر، والسيد مرتضى العسكري، والسيد محمد تقي الحكيم، والشيخ محمد أمين زين الدين، والسيد محمد باقر الصدر(رحمهم الله)، وغيرهم.

وقد نهل رحمه الله من نمير هؤلاء ومن البيئة العلميّة والثقافيّة النشطة آنذاك، وإلى جانبهما الحراك السياسي والاجتماعي الذي ظهر في تلك الفترة، وهو المحيط الذي تأثّر به وأثّر فيه، وبخاصّة ما كان يمارسه من دور ثقافي أكسبه المزيد من قوّة الدفع نحو آمال التغيير وتنشيط الحركة الإسلامية في وطنه لبنان.

وقد ساعد على ما كان يمارسه رحمه الله من دور في بعث الحركة الإسلامية الواعية في لبنان ـ ومن ثَمَّ المحيط الإسلامي المجاور ـ ما كانت تشهده المنطقة من تباشير انتصار الثورة الإسلامية في إيران بقيادة الإمام الخميني رحمه الله، حيث دفعت هذه الثورة بمسيرة الصحوة الإسلامية الحديثة خطوات رائدة إلى الأمام، ما حمّل قياداتها أعباءً كبيرةً للنهوض بهذه المسيرة الآخذة في الانتشار، كان في مقدّمتها معالجة الكثير من القضايا المعاصرة معالجةً إسلامية، الأمر الذي ساعد على بروز قيادات إسلامية فكرية، أَثْرَت الساحة العربية بعشرات الإصدارات ذات الصبغة الحركية التي كان لها أثرها في توعية الأجيال التي شهدت انبعاث هذه الحركة، ومن تلاهم من أجيال لاحقة.

«ويُشكّل السيد فضل الله أحد أهم رموز وعناوين الفكر الإسلامي التي تابعت مسيرة تلك الصحوة الإسلامية، من حيث كونه منظّراً ومرجعاً للكثير من نخبها وحركاتها، وهو لا يزال [عبر مؤلّفاته] يطرح الكثير من الأسئلة حول مدى استطاعة هذه الصحوة أن تنقل الإنسان إلى عالم جديد تختلف معطياته الفكرية والسياسية والاقتصادية عن المرحلة التي سبقتها، فتبلور له قضاياه في مسألة الحرية أو العدالة، وتمنحه الأصالة في حركته نحو التوازن في حركة وجوده»(١).

وعندما يتحدث جمال سنكري عن دور السيد فضل الله على مستوى الساحة الإسلامية يشير إلى أنه قد «دفع المسلك الإسلامي على الصعيد الفكري والسياسي المعاصر بشكل واضح جدّاً، ففي الدوائر الإسلامية يعتبر السيد فضل الله شارحاً متميّزاً للفقه الديناميكي أو نظام الفقه الحديث.

فلقد ساهم رحمه الله - لكونه منظّراً دينيّاً مؤثّراً - مساهمة فعالة في الاهتمامات الفكرية والسياسية الإسلامية عبر مداولته المنتظمة لقضايا الديمقراطية والحكومة الإسلامية والشرعية السياسية وطبيعة مجرى التغيير والتفاعل بين الحداثة والتقليد. لقد كان شاهداً على الانفتاح الحاصل خلال العقدين الماضيين من القرن العشرين، وعلى التغيرات السريعة والمعقّدة والعميقة للقضايا الثقافية والاجتماعية والسياسية والدولية، فقد شعر السيد فضل الله بأنه ملزم - في سياق عمله كفقيه ومرشد ومنظّر ديني - أن يواكب التطوّرات البالغة الأهمية لكي يخاطب المسلمين بشكل فعّال ويرسم للحركة

---

(١) محمد حسين فضل الله .. العقلانية والحوار، مجموعة من المؤلفين ٣٣١ ـ ٣٣٢.

الإسلامية خطى جديدة، موجّهاً إياها في عالم ما وراء الحداثة، حيث يتزايد الاحتواء العالمي»[١].

إن اتصاف السيد العلاّمة بهذه الروح الديناميكية الفاعلة في محيطه الإسلامي، وريادته في مسيرة الصحوة الإسلامية المعاصرة، كان دافعاً مهمّاً لاستهداء حركة الدعوة النبوية فيما تتطلّبه قضايا وتفصيلات الحركة الإسلامية في واقعنا المعاصر، وللدفع بها نحو مزيد من التزام الخطّ النبوي المستقيم، وهو أمر كان قد صرّح به في أكثر من مناسبة، فها نحن نقرأ له يشير إلى أهمية هذه النقطة: «إننا نحاول الانطلاق إلى هذا التاريخ [النبوي] لنقرأه على هدي من وعي وعمق ومعرفة في هذه المرحلة التي نحاول فيها العودة إلى الشوط من جديد ـ بعد أن غُيِّبْنا عنه مدّة طويلة ـ لنحمل مشعل الكرامة والعدالة الإنسانية في رسالة السماء إلى الأرض»[٢].

وفي موضع آخر يقول: «علينا أن ندرسه [تاريخ الأنبياء] بالروح التي تعمل على أن تستلهم تجاربه الناجحة في تجاربنا العملية، ونستوحي من خطواته المتعثرة ما يجنبنا من الوقوع في عثرات الخطوات المماثلة، مع استبعاد القضايا التي تخضع لحدود الزمان والمكان، فلا تمتدّ إلى غير مرحلتها الزمانية، ولا تتسع لغير ظروفها المكانية ... لتبقى لنا النتائج العامّة الشاملة التي تحتضن كل تطورات الحياة، وتظل في عناصرها الأساسية فوق قوانين التغيُّر والزوال، لا تخاطب الإنسان في حدود إنسانيته وجوهرها الأصيل»[٣].

---

(١) مسيرة قائد شيعي، جمال سنكري ٤٢٩ ـ ٤٣١، مختصراً.

(٢) في رحاب أهل البيت، السيد محمد حسين فضل الله ١/ ١٦.

(٣) خطوات على طريق الإسلام ٤١٧.

حركيّة التاريخ الرسالي في خطاب السيد فضل الله

انسجاماً مع ما كان يمارسه السيد فضل الله رحمه الله من دور مهم في تنشيط الحركة الإسلامية المعاصرة، برزت الروح الحركية التي كان يتّسم بها سماحته في دراسته لحركة الدعوة عند الأنبياء، وذلك من خلال الدروس والعِبَر التي كان يستخلصها من القصص النبوي أثناء دروسه في تفسير (من وحي القرآن)، وقد آثرنا أن نختم بالإشارة إلى بعض الأمثلة من هذه الدروس:

في حديثه عن قصّة قوم موسى الذين عبدوا العجل عندما واعده الله أربعين ليلة، الواردة في الآيات: ٤٩ ـ ٥٤ من سورة البقرة، يعلّق بقوله: «مما نستوحيه من هذه الآيات درساً جديداً للعاملين في سبيل الله، سواءً كانوا في موقع الدعوة أم كانوا في موقع العمل والحركة: ألاّ يتأثّروا بالمظاهر الانفعالية للإيمان فيمن يتعاونون معهم أو يتبعونهم، بل عليهم أن يدرسوا ـ بعمق ـ طبيعة العوامل الداخلية والمؤثّرات الخلفية التي استطاعت أن تربط هؤلاء بالقيادة أو بالخطّ العملي، أو بالفكرة الشاملة، فقد تكون المؤثّرات خاضعة لطبيعة القائد في قوّته الفكرية، أو جاذبيته الشخصية، أو انتماءاته العائلية والقومية أو الإقليمية، وقد تكون الأسباب متّصلة ببعض الأجواء العاطفية للقضية، أو ببعض ردود الأفعال ضد حركات معيّنة، أو قيادات خاصّة تقف في الموقف المعاكس لهذه الحركة أو هذه القيادة، مما يجعل الارتباط بها تنفيساً عن عقدة أو تفجيراً لغيظ ... لا بدّ للعاملين من دراسة ذلك كلّه، لتكون مواقفهم مبنية على معرفة عميقة للأرضية التي يقفون عليها، وللمجتمعات التي يتعاملون معها ويتحرّكون فيها؛ لأن ذلك قد يكلّف العمل وجوده، عندما

تختلف حسابات المواقف أمام النماذج القلقة التي تتكشّف عنها التجارب في صورة غير منتظرة»(١).

وفي تعليقٍ له على شرح الآيات ٨٧ ـ ٩٦ من سورة البقرة التي تتحدّث عن موقف اليهود السلبي تجاه دعوات أنبياء اللّه عليهم السلام، حيث كانوا يقابلون دعواتهم بالاستكبار والتكذيب وفي بعض الأحيان بالقتل، في تعليقه على ذلك يقول: «أما ما نستوحيه من هذا الفصل من السورة، فهو أن نتابع هذا التاريخ من خلال النماذج الحيّة الموجودة في الحاضر التي تواجه الدعاة إلى الله بالتكذيب تارةً، وبالسجن أخرى، وبالقتل في بعض الحالات، وذلك لعدم انسجام شعارات الدعوة الإسلامية الحقّة مع أهوائهم وأطماعهم وامتيازاتهم، في الوقت الذي نجد هذه النماذج تحمل مع شعاراتها الكثير من كلمات الإصلاح والخير والإيمان بالرسالات السماوية، ... إن قيمة التاريخ القرآني تتمثّل فيما يقدّمه لنا من نماذج حيّة متحرّكة لا تتجمد في زوايا التاريخ، بل تظلّ تحمل للحاضر والمستقبل الغنى والامتداد فيما يواجهه الإنسان في مراحل تطوّره من مظاهر الانحراف والاستقامة والكفر والإيمان، وتلك هي مهمّة القارئ للقرآن والدارس له، ألاّ يظلّ يدور حول الصورة القرآنية للإنسان في خطوات التاريخ، بل يحاول أن يرصد من خلالها الصور القادمة في حركة المستقبل، ليعطي الحياة للآية في وعيه وفي وعي الآخرين»(٢).

في ختام حديثه عن الآية الكريمة ١٢٤ من سورة البقرة: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى

(١) من وحي القرآن ٢/ ٤٩ ـ ٥٠.

(٢) م. س ٢/ ١٣٠ ـ ١٣١.

إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ يقول رحمه الله: «أمّا ما نستوحيه من هذه الآية، فهو قضيتان أساسيتان:

إنّ المسؤولية لا تُمنح إلا بعد الابتلاء والاختبار، ولا سيما إذا كانت تتعلّق بالأمر الذي يستدعي تغيير الأمة في حاضرها ومستقبلها، فلا يمكن أن تُجعل على أساس انطباعات عامّة، أو على أساس المجاملات والمحسوبيات الخاصّة.

إنّ القائمين على شؤون الأمّة لا بدّ أن يكونوا بالمستوى الذي يرتفعون به عن صفة الظلم في حياتهم؛ لأن الإنسان الذي يعيش الظلم في حياته لا يمكن أن ينطلق بعيداً عن محاربة الظلم ورفعه عن حياة الناس»[1].

أثناء سرده لقصّة طالوت وجالوت الواردة في الآيات ٢٤٦ ـ ٢٥٢ من سورة البقرة، يشير إلى نقطة مهمة يوجّهها إلى العاملين في سبيل الله، فيقول: «هذا درس للعاملين في سبيل الله أن يقفوا موقف الحذر من كثيرٍ من المتحمّسين والمندفعين الذين يطرحون الشعارات الحادّة، ويعلنون ـ في حماس زائد ـ استعدادهم للجهاد والقتال فيما إذا حصلت لهم القيادة الحكيمة الصالحة، وهم يظنون أو يأملون في أنفسهم ألا تحصل. إن علينا أن نستفيد من هذه القصّة بالطريقة التي يمكننا ـ فيها ـ التفاهم معهم من أجل اكتشاف ما هم عليه من جدّية وتصميم، لتتميّز العناصر المخلصة من العناصر المزيّفة سواء في وضعهم أمام التجربة العملية فيما يريدون، أم

---

(١) م. س ٣/ ١٩ ـ ٢٠، مختصراً.

في إدارة الحوار معهم في بعض القضايا التي توضح لنا الفرق بين الجوانب المرتبطة بالذات وبين الجوانب المرتبطة بالعقيدة»[١].

خطوات الدراسة

المصدر الأول لدراسة تاريخ الأنبياء وقصصهم هو القرآن الكريم، حيث يمثّل- في الثقافة الإسلامية - أوثق وثيقة مكتوبة تؤرّخ لحياة الأنبياء، والقرآن الكريم في استعراضه لسِيَر وقَصص الأنبياء اتبع منهجية محدّدة ضمن ضوابط معيّنة طَبَعت جميع هذه القصص - تقريباً - من أهمها مسألة أخذ العبرة والموعظة والقدوة فيما يرويه القرآن من قَصص، حسب السيد العلاّمة فضل الله، الذي يرى أنّ ما تورده الآيات القرآنية حول القصص النبوي إنما لأخذ الدرس والعبرة في مسيرة التهيئة الفكرية والروحية للإنسان الفرد والمجموع، وهي نقطة سنوردها لاحقاً.

ولذلك عندما نريد أن نتعرّف المنهجية التي يتبعها السيد فضل الله في دراسة حركة الدعوة عند الأنبياء سيكون مصدرنا في مثل هذه الدراسة هو تفسيره القيّم «من وحي القرآن»، وهي الدراسة التي اتبع فيها خطوات محدّدة، يمكن تلخيصها في النقاط التالية:

أ) التركيز على موضع العبرة من القصّة

القرآن الكريم ليس كتاب تاريخ لحركة الأنبياء، بحيث يستغرق في ذكر جميع تفاصيل سِيَرِهم المباركة، وإنما أشارت الآيات القرآنية إلى مورد

---

(١) م. س ٤/ ٣٨٨.

العبرة والفائدة منها، وانطلاقاً من هذا المبدأ اقتصر السيد العلامة فضل الله ـ أثناء استعراضه أحداث القصّة ـ على ما ذكرته الآيات، دون أن يخوض في مناقشة تفاصيل القصّة التي ورد كثير منها في مدوّنات الحديث، وأشارت إليها كتب التفسير الأخرى، يقول في شرحه للآية ١٠٨ من سورة البقرة: ﴿أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُواْ رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَى مِن قَبْلُ﴾: «تدل الآية على أن قوم الرسول محمد ﷺ سألوه شيئاً مشابهاً لما سأله قوم موسى، ولكنها تُجمل طبيعة ذلك الشيء، فهل هو أن يروا الله جهرة كما عن البعض، أم هو أن يضع لهم إلهاً على صورة آلهة الكفار كما ذكره بعضهم، أم أن يحقق لهم بعض الطلبات التعجيزية ...؟ ونحن لا نريد أن نسترسل كثيراً فيما استرسل فيه المفسرون من الحديث عن هذا الأمر؛ لأننا لا نجد الجانب التفصيلي في هذه القضايا موضع أهمية لاستيحاء الفكرة أو أخذ العبرة، فنجمل ما أجمله الله من القصة التي لم تتحدّث إلا عن طبيعة هذا السؤال، وعلاقته باستبدال الإيمان بالكفر»[1].

وفي حديثه عن قصة طالوت وجالوت الواردة في سورة البقرة في الآيات ٢٤٦ ـ٢٥٢ يقول: «وهذه قصة أخرى من القصص القرآني، الذي أريد به التأكيد على بعض المفاهيم التربوية العامة في الحياة العملية للإنسان، وقد أفاض المفسرون فيها بما رووه من التفاصيل المتعلقة بالأشخاص والأحداث والأشياء. ولكننا نتّبع الأسلوب القرآني في طريقة تناولنا للقصّة، فنجمل فيما أجمل، ونفصّل فيما فصّل فيه الحديث؛ لأنّ القضية في هذه القصّة ـ وفي غيرها من القصص ـ هي قضية الفكرة التي توحي بالهدف، لا السرد

(١) من وحي القرآن ٢/ ١٦٤.

الذي يدفع إلى أجواء الملهاة، فلا بدّ من أن نتناول منها الإنسان النموذج والحدث النموذج، فيما نتناوله من تفاصيلها»[١].

ونراه ـ في مثال ثالث ـ يتحدث حول الآية ١٥٥ من سورة الأعراف: ﴿وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِّمِيقَاتِنَا﴾ فيعدّد الآراء حول سبب طلب موسى من الله أن يراه جهرة، فيقول: «ورأى بعضهم أن هذا ما جعل موسى يطلب من الله أن يمكّنه من النظر إليه استجابةً لطلبهم منه ذلك، فإذا استجاب الله ذلك فسيرونه معه؛ لأنهم كانوا حاضرين هناك. وحاول البعض مناقشة بعض تفاصيل ذلك، وحملها بعض على المحامل الأخرى البعيدة لبعض الأحاديث الواردة في هذا المجال، ولكننا لا نجد كبير فائدة من الدخول في مثل هذه التفاصيل؛ لأن القرآن أجملَ القصّةَ لابتعاد خصوصياتها عمّا يريده من أغراض، وهو تأكيد العقاب الإلهي لمن تمرّد وانحرف، وتقرير الفكرة التي تربط الحاضر بالماضي في قضايا الإيمان والانحراف»[٢].

ب) شرح أحداث القصة مع رفع الملابسات عن بعضها

ما يعتقده المسلمون في أنبياء الله عليهم السلام أنهم معصومون، فلا يصدر عنهم أيّ معصية يخالفون فيها أوامر الله أو نواهيه، ولذلك عندما ترد إحدى القصص القرآنية حول أحد الأنبياء يقوم المفسِّر بشرح الآيات التي تسرد بعض تفاصيل القصة محاولاً معالجة بعض ما يرد فيها مما قد يفهم بأنه مخالف للعصمة أو أنه معصية للخالق جلّ وعلا، وفي هذه النقطة كان السيد

(١) م.س ٤/ ٣٨٥.
(٢) م.س ١٠/ ٢٥٦.

فضل الله رحمه الله له رؤية فيما يرتبط بمسألة العنصر البشري في الرسول، إذ يرى أن الأنبياء لا يختلفون عن بقية البشر فيما قد يتعرّضون إليه من ضعف بشري في تحمل أعباء الرسالة أو خطأ في تقدير بعض الأمور، يقول رحمه الله أثناء شرحه للآية ١٥٠ من سورة الأعراف التي تتحدث عن النبي موسى عندما رجع من ميعاد الله له فوق الجبل فوجد قومه يعبدون العجل: «وتبقى حول فكرة العصمة بعض التساؤلات: كيف يخطئ هارون في تقدير الموقف وهو نبي؟ أو كيف يخطئ موسى في تقدير موقف هارون وهو النبي العظيم؟ وكيف يتصرّف معه هذا التصرُّف؟

ولكننا قد لا نجد مثل هذه الأمور ضارة بمستوى العصمة؛ لأننا لا نفهم المبدأ بالطريقة الغيبية التي تمنع عن الإنسان مثل هذه الأخطاء في تقدير الأمور، بل كل ما هناك أنه لا يعصي الله فيما يعتقد أنه معصية، أما أنه لا يتصرّف تصرُّفاً خاطئاً يعتقد أنه صحيح مشروع، فهذا ما لا نجد دليلاً عليه، بل ربما نلاحظ في هذا المجال أن أسلوب القرآن في الحديث عن حياة الأنبياء ونقاط ضعفهم يؤكّد القول بأن الرسالية لا تتنافى مع بعض نقاط الضعف البشري من حيث الخطأ في تقدير الأمور»[1].

وفي شرح السيد فضل الله لأحداث القصص النبوي الواردة في القرآن يحاول تفسيرها بما يتلاءم والإيمان بعصمة الأنبياء التي تعني عدم تعمّد النبي في أي حال من الأحوال الإقدام على ارتكاب المعصية، دون أن يعني ذلك أن يذهب إلى شرحها بمعنى بعيد عن سياق ومنطوق الآية، مستفيداً

---

(١) م.س ١٠/ ٢٥١.

ومناقشاً لـ «بعض الأفكار الواردة في بعض الدراسات التفسيرية والفكرية، ولا سيما ما ورد في تفسير الميزان للعلاّمة الكبير السيد محمد حسين الطباطبائي رحمه الله، الذي يعدّ من أفضل التفاسير الحديثة ثراءً وتنوّعاً فكريّاً وتفسيريّاً، ولذا فقد حاولت درس بعض أبحاثه درساً نقديّاً بناءً على مستوى أسلوب التفسير أو مواد الفكر»[١].

ومن أراد أن يتبيّن نظرية السيد فضل الله حول العصمة في المفهوم الإسلامي عليه بتتبّع دراساته وكيفية معالجته لمواقف الأنبياء الواردة في الآيات القرآنية التي شرحها في تفسيره من وحي القرآن، وقد أولاها السيد عبد السلام زين العابدين في كتابه «مراجعات في عصمة الأنبياء» قسطاً جيداً من الاهتمام، وهو من المصادر المهمّة في هذا الاتجاه.

جـ) الدروس العمليّة المستفادة

كنا قد أشرنا ـ في حديثنا عن منطلقات دراسة حركة الدعوة لدى العلامة السيد فضل الله ـ إلى أنّ من بين تلك المنطلقات أن هذه الدراسة تمثّل منبعاً للعمل الإسلاميّ وغذاءً روحيّاً وفكريّاً له، وتأسيساً على ذلك كان يحرص رحمه الله أن يخرج من أي قصّة قرآنية بفوائد يمكن أن ينطلق منها العاملون الملتزمون العنوان الإسلامي العام في حركتهم وأنشطتهم الاجتماعية والثقافية، وهذا أمر لم يكن منحصراً في مواطن القصّة في القرآن الكريم، بل نجده يحرص على ذلك نهاية شرحه لمعظم المقاطع القرآنية التي وحّدها ضمن عنوان واحد، ذلك أنه يؤمن بحركية القرآن في

---

(١) م. س ١/ ٢٠.

جميع آياته القصصية والأخلاقية والوعظية والفقهية والعقائدية.

يقول حول هذه الفكرة أثناء شرحه للآية ٣٢ من سورة الفرقان: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلاَ نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً﴾: «وإذا أردنا أن نطلق الآية في حركية الدعوة والعمل في سبيل الله، فنستطيع استبدال تدريجية النزول للآيات بتدريجية تحرُّك الآيات في مواقع العمل والجهاد وفي منطلقات الدعوة بطريقة دقيقة، نوزّع فيها الآيات على المسيرة، فتكون هذه الآية في نقطةٍ هنا، ونقطةٍ هناك، وتكون السورة في مرحلةٍ أولى، لتكون السورة الأخرى في المرحلة الأخرى، ليكون القرآن ثقافة الأمة في كل مواقع السير، حتى يعرفوا الفكرة في مواقع الحركة، فلا تبعد المسيرة عن آفاق الإسلام في فكره وشريعته»[1]، فالسيد رحمه الله يستفيد ـ من كيفية نزول آيات القرآن الكريم، حيث نزلت متدرّجة حسب ظروف وأحداث الدعوة الإسلامية ـ أنّ القرآن حركيّ، تحرّكت آياته مع جميع مفاصل وأحداث الدعوة، وهو ما يجعله يذهب إلى القول بحركيته في واقع أمتنا اليوم على اختلاف مواقع العمل فيها.

وكانت هذه الفوائد التي يستفيدها السيد من القصص القرآني النبوي تتنوّع بين العقائدي الذي كان كثيراً ما يرتبط بعصمة الأنبياء أو بعض نواحي النبوة كالمعجزة أو بعض صفات الأنبياء، والفقهي، وبخاصّة ما يرتبط منه بأحداث الدعوة الإسلامية التي يترتب عليها بعض الأبحاث الفقهية التفصيلية، والأخلاقي والعملي والفكري. ولا مجال هنا للاستشهاد بها،

وبخاصّة أنها تتوزّع على أجزاء التفسير بكامله، يمكن لمن أراد أن يراجع أي جزءٍ منها ليطّلع على بعض النماذج.

د) ترسيخ القيمة في مقابل الخرافة

مما كان يتميّز به العلاّمة السيد فضل الله في دراسته لحركة الدعوة النبوية هو استنطاق أحداثها فيما ترمز إليه من قيم إنسانية عليا ومبادئ فكرية سامية تبشّر بها، وهي النقطة التي استهدفناها من خلال دراستنا هذه، وقد وجدْتُ ـ من خلال استقراء عناوين تفسيره (من وحي القرآن) ـ أنّ تناوله لهذه القيم المرتبطة بحركة الدعوة النبوية يمكن تقسيمه إلى أقسامٍ أربعة، وهي الأقسام التالية:

- ما يرتبط بأساس الرسالة الإلهية والهدف منها.
- ما يرتبط بالنبي وصفاته الشخصية وما يتعلّق بتعامله مع الآخرين.
- ما يرتبط بحركية الدين في واقع حياة الإنسان وعلاقته بأتباع الأديان والمعتقدات الأخرى.
- ما يرتبط بقيم وهوية الفئات المقابلة الرافضة للدعوة.

وستكون هذه الأقسام الأربعة محور الحديث في الفصول التالية، مرتّبةً حسب الترتيب الوارد أعلاه.

الفصل الثاني

الرسالة الإلهيّة
بين الغاية والوسيلة



كنا قد أشرنا مطلع هذا البحث إلى أنّ الله بعث أنبياءه بالدين بهدف تنظيم حياتهم العامّة والخاصّة بما يتلاءم وطبيعتهم الإنسانية، ويحقّق لهم مصالحهم العامّة. والدين - بهذا المعنى - مجموعة من القيم والمبادئ والأحكام التي تحقّق للإنسان السعادة والعيش بكرامة، «وبذلك تكون قضيةُ الرسالات قضيةَ الإنسان فيما تستهدفه من رفع مستواه وتدبير أموره، وتحديد دوره الطبيعي في تنظيم شؤون الكون من حوله، ليبلغ السعادة في الدنيا، على أساس راحةٍ في الفكر وفي العمل والشعور، وينال السعادة في الآخرة على أساس ما يحصل عليه من درجة في جنّة الله ورضوانه»[١]، وهو المعنى الذي ربما غاب في كثير من الدراسات الكلامية والفكرية، أو كان حاضراً بصورة مختصرة.

وما يميّز دراسة السيد فضل الله لحركة الدعوة الدينية عن مثيلاتها من الدراسات هو تركيزه على هذه المفاهيم التي جاءت الديانات الإلهية لتبشّر بها، وهي الفكرة التي خصّصنا حولها هذه الفصول الأربعة، وقد رأيتُ من المناسب أن يكون مبدأ الحديث فيها حول الغاية/ الهدف من الرسالات الإلهية وما تحمله هذه الهدفية من قِيَم سامية، وجدتُ أن أرتِّبها في عناوين محدّدة وجامعة، وهي كالتالي:

---

(١) من وحي القرآن ٩/ ٢٥٧.

أ) تنمية القيم المعنويّة

وهب الله الإنسان قدرةً عقلية استطاع بها أن يطوّر في أنماط وأساليب حياته اليومية، والإنسان لا يزال مستمرّاً في تطوير وتنمية هذه الأنماط والأساليب التي غيّرت حياة الإنسان من شكلها العفوي، إلى أنظمة حياتية معقّدة ومتداخلة، وذلك بفضل العديد من المخترعات الصناعية والتقنية والجوانب التنظيمية التي تمسّ اليوم معظم الجوانب الحياتية للإنسان.

والإنسان الذي أبدع في هذا المجال أيَّما إبداع لا يزال يعاني من الإخفاق في إيجاد نظام عام يكفل السعادة والعيش بكرامة لكافة طبقات وشرائح المجتمع، ذلك أن الإنسان كما يحتاج إلى ما يُشبع حاجته المادية، يحتاج كذلك إلى ما ينمّي فيه الجانب المعنوي والروحي، وهو الأمر الذي تكفّلت به الديانات الإلهية وبشّرت به، وهي نقطة يشير إليها سماحة العلاّمة السيد فضل الله رحمه الله، حيث يقول في شرحه للآية الكريمة ٥٣ من سورة البقرة ﴿وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ ـ مركّزاً على المقطع الذي ختمت به الآية ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ـ: «ونستوحي من هذه الآية أن على الدعاة أن يركّزوا على طبيعة النعم التي أنعم بها الله على الإنسان، فلا يقتصرون على النعم الحسية التي يمارس الإنسان من خلالها شهواته ولذاته ومطامحه الذاتية، بل يثيرون أمامه النعم التي تتصل بفكره وخطواته العملية ومصيره في الدنيا والآخرة فيما يتّصل بقضايا الحق والباطل من القيم الروحية والإنسانية الكبرى، التي ترتفع بمستوى الإنسان الروحي والاجتماعي»(١).

وتمثيلاً للفكرة التي يطرحها في شرحه لهذه الآية نراه في تناوله للآيات

---

(١) م.س ٢/ ٤٢ ـ ٤٣.

١٢٥ ـ ١٢٩ من سورة البقرة التي تتحدث عن بناء إبراهيم مع ابنه إسماعيل عليهما السلام للكعبة المشرّفة يركّز على هذه المسألة التي كانت حاضرة في أدعية النبي إبراهيم عليه السلام الواردة في الآيات، حيث كانت مفعمة بالأجواء الروحية الطيبة، يقول رحمه الله: «أما ما نستوحيه من هذه الآيات، فهو الجو الروحي الذي ينبغي للعاملين الإسلاميين أن يعيشوه وهم يعملون في بناء المؤسسات؛ ليبقى للعمل جوّ العبادة والواجب والمسؤولية، فلا يتحوّل إلى غاية بعد أن كان وسيلة»[1].

العبادة ودورها في ترسيخ الروح المعنويّة في الإنسان

عندما يؤكّد السيد فضل الله رحمه الله أهمية الجانب الروحي والمعنوي ودوره في الحياة الإنسانية الاجتماعية والشخصية، يشير إلى مسألة ذات علاقة مباشرة بما يغذّي هذا الجانب في الإنسان، وهو الدور الفاعل للطقوس العبادية فيما تنمّيه في الشخصية الإنسانية المتديّنة، إذ نجده يربط بين الإيمان بالدين وممارسة ما يحتويه هذا الدين من طقوس عبادية، ذلك أن «الإيمان ـ في الرسالات الإلهية ـ لا يمثّل فكراً تجريديّاً، كما هو الإيمان بالحقائق الرياضية أو الفلسفية، بل هو فكر للحياة والعمل، لا ينفصل فيه جانب التصور عن الممارسة، فللإيمان بُعدُه العملي إلى جانب بُعدِه النظري؛ لأن المطلوب هو الإحساس بوجود الله بالمستوى الذي يعيش فيه الإنسان حالةً من الارتباط به في أجواء الطاعة، كما يعيش حالةَ الارتباط به من خلال حركة الوجود فيما تمثّله الحقيقة الإيمانية من ارتباط وجود الإنسان بالله لجهة البدء والامتداد والنهاية، وهكذا نجد الرسالات تطرح قضية

---

(١) م. س ٣/ ٣٤ ـ ٣٥، مختصراً.

العبادة في أجواء طرح قضية التوحيد، لتؤكّد العلاقة الطبيعية بين توحيد العقيدة وتوحيد العبادة»[١].

واستكمالاً للفكرة، يشرح السيد ﷺ مصطلح العبادة في المنظور القرآني، فَـ «العبادة هي الخضوع والالتزام بالخط الإلهي الذي جاء به الرسل فيما يتعلّق بإقامة العدل المرتكز على النظام التفصيلي الكامل الذي يضع لكل ذي حقّ حقّه، ويثير الحياة في جوٍّ من الالتزام والانضباط بأوامر الله ونواهيه، وهذا ما يجعل من الدعوة إلى عبادة الله دعوة إلى بناء الحياة على أساس إسلام الأمر لله في كل شيء، كما توحي بذلك الآية الكريمة التي تلخّص الإيمان في كلمتين: ﴿الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾[٢]، فيما تمثّله كلمة ﴿رَبُّنَا اللهُ﴾ من المنهج الفكري والعملي للالتزام، وفيما تمثّله كلمة ﴿ثُمَّ اسْتَقَامُوا﴾ من الحركة العملية في هذا الاتجاه»[٣].

ب) الرسالة أصلٌ والقيادات حَمَلَتُها

كان من أهم المبادئ التي ركّز عليها العلاّمة السيد فضل الله أثناء مسيرته الفكرية والعملية، أهمية الارتباط بالخط والفكرة بدلاً من الارتباط أكثر بالقيادة التي تبشّر بهذه الفكرة أو الرسالة، فحينما نرتبط بالإسلام، علينا أن نرتبط به ديناً ورسالةً وتشريعاً يحوي مجموعة من المبادئ والأسس، وعندما نرتبط برجالاته الذين يأتي نبينا محمد ﷺ في مقدمتهم علينا أن نرتبط به حاملاً لهذه الرسالة، لا أن يكون ارتباطنا وتقديسنا له شخصاً

---

(١) م. س ١٠/ ١٥٦.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٠؛ وسورة الأحقاف، الآية: ١٣.

(٣) من وحي القرآن ١٠/ ١٥٧.

وذاتاً، وقد كانت هذه النقطة مما أثارها أثناء دراسته لظاهرة الدعوة النبوية، حيث يقول معلّقاً على الآيتين ٧٩ و٨٠ من سورة آل عمران ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللهِ وَلَكِن كُونُواْ رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ * وَلاَ يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُواْ الْمَلاَئِكَةَ وَالنِّبِيِّيْنَ أَرْبَاباً أَيَأْمُرُكُم بِالْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾: «إن الله لا يبعث من ينحرف بالناس عن فطرتهم التي فطر الناس عليها، بل يبعث من يقوّيها ويدعمها ويحرّك فيها كل المفردات التي تجعل الإنسان مستقيماً على درب التوحيد في فكره وعمله.

وقد نحتاج إلى استيحاء هذا الأسلوب التربوي في دراستنا وأبحاثنا التي ندرس فيها حياة الأنبياء والأئمة والأولياء، فنستغرق في الجوانب العملية من حركة الإسلام في حياتهم الشخصية والعامّة، لنبقى في خط الارتباط بالشخص من خلال الفكرة والرسالة والعمل، فيزيدنا ذلك ارتباطاً بالخط الصحيح، وابتعاداً عن مواطن الخطأ والضلال في الطريق، ولا نستغرق في الأسرار الخفية الغامضة التي يثيرها البعض في حديثه عن هذه الشخصية أو تلك ممن نعظّم من شخصيات الأنبياء والأولياء»[1].

وفي السورة نفسها (آل عمران) عندما يتناول الآية ١٤٤ منها التي تتحدث عن قصة معركة أُحُد حينما شاع بين المسلمين نبأ وفاة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت الآية الكريمة: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ يعلّق على هذه الحادثة بقوله: «في هذه الآية تأكيد

(١) م. س٦/ ١٣١.

قرآني على أحد المبادئ الإسلامية الإيمانية، وهو أن غياب القيادة ـ مهما كانت عظيمة ـ لا يوقف المسيرة ولا يلغي الرسالة/ المبدأ؛ لأن عظمة القائد ـ في حساب الرسالات ـ لا تجمّدها عند حدود حياته لتنتهي بانتهاء حياته، بل تمثّل ـ بدلاً من ذلك ـ خطوةً أولى نحو الانطلاقة المستمرّة في الدرب الطويل، ... فالرسالة هي الأصل والقاعدة، والقيادات المتتابعة تمثّل دور الحَمَلَة لها، فقيمتهم بمقدار ما يقدّمون لها من خدمات وتضحيات»(١).

بل إنّ السيد فضل الله يذهب إلى أبعد من ذلك، إذ يعطي للقاعدة دوراً وقيمةً مهمّة في مسيرة الدعوة، ذلك أنه يرى أن القيادة ـ مع ما تحمله من رسالة ومبدأ ـ لا تتكامل إلا في ظل مجتمع متفاعل معها، يقول ـ معلّقاً على الآية ٢٩ من سورة الفتح ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاء عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاء بَيْنَهُمْ﴾ ـ: «إن الله يريد أن يثير أمامنا قاعدة رسالية تطال علاقة القيادة بالقاعدة، وهي أن القيادة لا تلغي دور القاعدة، ولا تأثيرَها في عملية صنع القوة وتحريك النصر، فالقيادة ليست هي كل شيء، ليكون الدور كله لها، بل إن للقاعدة دوراً يتأكّد على أساس التكامل مع القيادة، والتفاعل مع حركتها، والاندماج بأخلاقيتها الرسالية، ليشكلا معاً مجتمعاً موحَّداً.

هذا ما ينبغي لنا أن نتمثّله في وعينا الحركي في خط الرسالة، فلا نستغرق في الشخص إلا من خلال الفكرة التي يحركها ويقود الحياة من خلالها ويطلّ من نافذتها على الآخرين، بحيث يكون الشخص بطل الخط ولا تكون الرسالة خط البطل»(٢).

---

(١) م. س ٦/ ٢٩٣.
(٢) م. س ٢١/ ١٢٧ ـ ١٢٨.

ولذلك يؤكّد في موضع آخر على مسألة أخرى مرتبطة بهذه النقطة، وهي أن الارتباط القائم بين النبي وأتباعه يجب أن يكون ارتباطاً قائماً على الإيمان بالفكرة والمبدأ، وليس ارتباطاً قوميّاً أو عشائريّاً، فها هو يعلّق على الآيات ٤٩ـ ٥٤ من سورة البقرة التي تتحدّث عن قوم موسى عندما واعده الله أربعين ليلة، فيقول: «من خلال هذه الآيات المتقدّمة [٤٩ ـ ٥٤] نستطيع استيحاء موقف يرى أن قوم موسى لم ينطلقوا معه من موقع الإيمان برسالته والوعي لمفاهيمها التي تفرض عليهم مسؤولية الفكر والحركة، بل كانوا يسيرون معه من موقع الانتماء القومي من جهة، ومن موقع الحاجة إلى التخلّص من ظلم فرعون من جهة أخرى، ولم تكن قضية الإيمان إلا وسيلة من وسائل تأكيد هاتين الجهتين بعيداً عن كل اعتبارٍ للحقيقة في الموقف، مما جعلهم ينحرفون عند أي منعطف للانحراف، ويبتعدون عن الجوّ لدى أول غيابٍ لموسى عليه السلام عنهم، ... وهذا ما يُظْهِر تراجعهم السريع وشعورهم العميق بالذنب عند مواجهتهم لموسى بعد رجوعه من ميقات الله»[1].

والسيد فضل الله حينما ينتقد بعض الدراسات الكلامية التي تقدّم ـ من حيث الاهتمام ـ بحث الرسول الذات على الرسالة، يستعرضُ عدداً من المسائل المتفرّعة عن ذلك، نشير إلى أربعٍ منها، هي:

إننا حينما ندرس التاريخ الرسالي ننقل القصّة النبوية فيه من خلال استيحاء قداسة الرسول، وليس الرسالة، وهو الخلل الذي سبق أن أشرنا

---

(١) م. س ٢/ ٤٨ ـ ٤٩.

إليه في استعراضنا لمنطلقات دراسة التاريخ الرسالي عند السيد رحمه الله.

في هذا الجوّ، تبدأ القصة سيرةً ذاتيةً للرجل لا للرسول، حتى إن الرسالة تمثّل- في طريقة العرض - مجرّد حدثٍ من أحداث حياته الشخصية، دون أن تكون الحدث الأبرز ومحور تلك السيرة.

تتركّز العلاقة بين الأنبياء وأتباعهم على أساس شخصي، مما يجعل التقديس الروحي يتّجه إلى الأشخاص أكثر مما يتّجه إلى الرسالة، فيظهر الاهتمام بإحياء المناسبات الشخصية أكثر من الاهتمام بواجبات الرسالة وطقوسها والتزاماتها.

تظهر تلك الخلافات الحادّة بين العلماء أو بين العامّة من الناس حول تفضيل هذا النبي على ذاك، أو أحد الأئمة على نبي أو أكثر من نبي، بحيث تتحوّل المسألة إلى شيء يرتبط بالزهو الذاتي بالانتماء إلى هذا الشخص أو ذاك، وهو خلاف المنهج القرآني الذي كان يتحدّث عن الرسول من خلال الرسالة(١).

ج) المجتمع البشري ودور الدين في تعدّده

لإظهار أثر الدين في واقع حياة الإنسان يشير العلاّمة السيد فضل الله رحمه الله إلى نقطة مهمّة أثناء حديثه حول الآية الكريمة: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾(٢)، إذ يقول: «وهكذا ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾، أي على ملّة واحدة، أو جماعة واحدة مرتبطة بالفطرة التي لا تنطلق في خط

---

(١) انظر: خطوات على طريق الإسلام ٤١١ ـ ٤١٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١٣.

التفاصيل الفكرية المنفتحة على المنهج العملي في الخط الواحد، بل كانت تتحرّك من خلال العفوية الطبيعية في حركة الفعل وردّ الفعل، فلم يكونوا مهتدين أو ضالين في مصطلح الهدى والضلال في الرسالات؛ لأنهم لم يكونوا قد التقوا بها»[١]، ثم يبيّن أن الغاية من الرسالات أن «تكون حكَماً بين الناس فيما اختلفوا فيه من أمور الحياة الخاصّة والعامة»[٢]، بمعنى أن الله حينما بعث الأنبياء مبشرين ومنذرين إنما بعثهم ليغيروا من واقع المجتمعات البشرية التي كانت تعيش حالةً من الفطرية التي قد تنفجر فيها المشاكل دون ناظم وكافل لحلّها، وهي نقطة يوضحها بصورة أفضل في موضع آخر من التفسير، وذلك عند حديثه حول الآية ١٩ من سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَ النَّاسُ إِلاَّ أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُواْ﴾، إذ يشير هناك إلى أن الوحدة التي خلقهم الله عليها هي الوحدة الفطرية التي «تقودهم إلى التوحيد وتبعدهم عن خطّ الانحراف، إذا انطلقت في خطها المستقيم بعيداً عن التلوّث والتشويه الذي يُبعدها عن وضوح الرؤية للأشياء، ولكنهم أخذوا من دنياهم شيئاً من هنا وشيئاً من هناك، فيما يتّصل بالأطماع والشهوات»[٣].

وما نستفيده من المقارنة بين شرح هاتين الآيتين أنه ﷺ يرى أن الوحدة السابقة على بعثة الأنبياء كانت وحدةً تنحو نحو الفطرة السليمة، إلى أن انحرف البعض عن الخط المستقيم، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين، فاستجاب بعضهم إلى نداءات الدين المنسجمة مع الفطرة، فيما أصرّ البعض الآخر على عناده وعصيانه، فاختلف الناس بين مهتدٍ وضال.

---

(١) من وحي القرآن ٤/ ١٤٣.

(٢) م. س ٤/ ١٤٦.

(٣) م. س ١١/ ٢٨٨.

وتتميماً للفكرة، نقرأ ما يذكره تفسيراً للآية ٣٦ من سورة النحل: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾، إذ يقول هناك: «لا تختلف الرسالات ـ ولا الرسل ـ في الخط العام الذي يحكم دعوتهم، فهناك خط إيجابي يتعلّق بالموقف من الله، وهو أن يعبدوا الله وحده، بكل ما تعنيه العبادة من التزام بإرادة الله وأوامره ونواهيه في كل شيء، مهما كان صغيراً، وهناك خط سلبي يتعلّق بالموقف من الناس، وهو أن يجتنبوا الطاغوت، بكل ما توحي به الكلمة من نهج الطغيان في الحكم والشريعة والمنهج والموقف والشخص»[1]، وكذلك ما يشرح به الآية ٢٦ من سورة النساء: ﴿يُرِيدُ اللّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، حيث يشير هناك إلى أن الهدف من بعثة الأنبياء وتبليغ الدين «لينير الله للناس السبيل؛ لأنهم لا يستطيعون معرفة الطريق الواضح المستقيم الذي يحفظ لهم خطواتهم من الضياع وليصونها من الانزلاق في منحدرات الهاوية، بل الله هو الذي يهديهم إلى ذلك ويخرجهم من الظلمات إلى النور، ... وذلك بأن يفصّل الله لهم برنامج الحياة الذي يتضمّن الخلاص في المعاش والمعاد بما يبينه من أحكام الدين، باعتبار أنه وحده الذي يحقّق السعادة للإنسان في دنياه وآخرته»[2].

فالوحدة التي كان أساسها التعامل مع بعضهم بعضاً على أساس الفطرة السليمة، كان قد انحرف عنها جمع من الناس، حيث تمكنوا من التسلط على إخوانهم من بني البشر، ما نشرَ حالةً من العدوان والطغيان ﴿لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ

---

(١) م. س ١٣/ ٢٢٠ ـ ٢٢١.

(٢) م. س ٧/ ١٩٥.

﴿عَلَى بَعْضٍ﴾[١]، إلى أن دعت الحاجة إلى بَعْثِ النبيين والمرسلين مبشرين ومنذرين بهدف الرجوع إلى مبادئ وقيم الفطرة السليمة التي تستقيم والخضوع للخالق جلّ وعلا وترفض الخضوع لغيره من بني الإنسان، وبخاصّة الطواغيت والظَّلَمة منهم.

ولذلك فإن أحسن الأعمال في المنظور القرآني هي الدعوة إلى الله التي تحقق في المجتمع الإنساني هذه الغاية والقيمة «ألاَّ يبغي بعضهم على بعض»، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللهِ وَعَمِلَ صَالِحاً وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾[٢]، وذلك انطلاقاً «من موقع الإيمان الذي يعيش عمق العقيدة في العقل والوجدان، ويتحرّك في حياة الإنسان من موقع المسؤولية في خطّ الدعوة، عاملاً على فتح عقول الناس وقلوبهم على الله ليعرفوه ويؤمنوا به ويتحرّكوا في طريق طاعته، وكان ذلك همّه الأساس الذي يحوِّل العقيدة إلى حالةٍ في الذات، وحركة في الرسالة»[٣].

الاختلاف الديني والفكري ودوره في تأجيج الحروب

وقبل أن نختم الحديث عن دور الدين في تعدّد وتفرّق الناس إلى جماعات وأيديولوجيات متعدّدة، يجب إثارة مسألة الحروب الدينية التي اتّقدت بين بعض المجتمعات بسبب الانتماءات الدينية، حيث يُتَّهم الدين بأنه أساس هذه الحروب.

---

(١) سورة ص، الآية: ٢٤.

(٢) سورة فصلت، الآية: ٣٣.

(٣) من وحي القرآن ٢٠/ ١١٧.

وذلك انطلاقاً من الآية الكريمة: ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاء اللهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاء اللهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾[(١)]، حيث يثير السيد العلّامة رحمه الله نقطة مهمة حولها، وهي أن اختلاف خصائص الرسل التي تفاضلوا بها لا يثير أي نوع من التحدي بينهم، ومن ثمّ بين أتباع الديانات التي يدعون إليها، بل إن هذه الرسالات تتكامل فيما بينها ـ كما سنبين ذلك لاحقاً ـ والرسل يُصَدِّق بعضهم بعضاً، وتتميماً لهذه النقطة يبحث مسألة علاقة الدين بنشوء الحروب الدينية، فيقول: «ربما يثير الكثير من الناس أن الدين هو العنصر الحادّ السريع الاشتعال في الوجدان الإنساني لما يتضمّنه من حسِّ القداسة الغيبية التي تدفعه إلى التحرّك من أجل إلغاء الآخر؛ لأن هذا الجوّ الغيبي المنفتح على الإيمان بالله يمنع من الوصول إلى أية تسوية مع الكفر به ويجعل من الإنسان الكافر إنساناً لا يستحق الوجود، فلا بدّ من إزالته من الحياة ليبطل تأثيره في إضلال الناس عن خط الإيمان، لتكون مواجهته ثأراً لله وللرسول وللدين، فلا مجال للحوار معه؛ لأن القضية تفرض نفسها على الواقع الحي من خلال وضوحها الذي لا يلتقي بأية شبهة في احتمالات الخطأ، ليكون هناك مجال للجدل من خلالها، وبذلك يتحوّل المؤمن بالدين إلى شخصية عدوانية ساحقة ضد الإنسان الآخر الكافر، ...

ولكن، ليس معنى ذلك أن الروح الدينية تنطلق من فكرة إلغاء الآخر، بل هي، في مضمونها الرسالي، تدفع بأتباعها إلى الانفتاح على الآخر بالدعوة

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

القائمة على الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن بالأسلوب الذي يعمل على الدخول إلى عقله وقلبه والنفاذ إلى واقع حياته، ومناقشة فكره باحترام في عملية أَخْذٍ وردّ، بالطريقة التي يملك فيها حرية المناقشة بلا حدود أمام الهدف الذي يحوّل الأعداء للرسالة والقضية والموقع والموقف إلى أصدقاء لها، ...

ولكن الجهل والتخلف اللّذين يسيطران على بعض المجتمعات المتدينة أو الأشخاص المتدينين، هما اللذان يدفعان بالإنسان إلى مواجهة الفكر الآخر بالانفعال والحماس المضاد والأسلوب العاطفي الذي لا يفكر بعقل واتزان؛ لأنه لا يملك العقل الذي يواجه العقل الآخر والاتزان الذي يلتقي من خلاله بالخلفيات التي تكمن في قناعات الفئات المضادّة، فلا يملك في هذا الجوّ شجاعة المجابهة العقلانية، فيحوّل الموقف إلى المجابهة العدوانية.

ويمكن أن تتحرّك الحرب من خلال الطرف الآخر الذي يعمل على العدوان على الموقع الديني، وذلك من خلال عملية احتلال عسكري أو سيطرة اقتصادية أو سياسية، مما يجعل القضية دفاعاً عن النفس، أو وقاية من العدوان المحتمل، وذلك من خلال روحيةٍ منفتحة على القضايا الكبرى في عناوينها الحيوية التي يرى فيها المحاربون فريضةً إلهية لا تحمل عقدة الذات الطائفية، بل علاجاً للواقع الصعب الذي يختزن الأخطار على مصير الدين والمستضعفين وعلى حرية المؤمنين في الدعوة إلى الله.

وهكذا نجد أن الحرب الدينية ليست حركة عدوانية ضد الإنسان الآخر،

بل هي حركة دفاعية أو وقائية من أجل المحافظة على الذات والموقع والإنسان»[١].

وحول هذه النقطة يبرِّئ السيد فضل الله الدين من مسؤولية الاحتراب بين أتباع الديانات، متمِّماً حديثه السابق بالإشارة إلى نقاطٍ ثلاث، هي:

«إننا لا نرى في الحديث عن مسؤولية الدين عن الحرب في حياة الإنسان حديثاً واقعيّاً دقيقاً، بحيث يكون السبب الرئيس في حركة الحرب في الواقع، فهناك الحروب العرقية والقومية والاقتصادية والسياسية التي قد تختبئ وراء الشعارات الدينية في بعض الحالات، وقد تكشف عن وجهها الحقيقي في حالات أخرى، مما يجعل من هذه الأمور أساساً للحرب الدائبة بشكل مباشر أو غير مباشر.

إنّ الدين الذي ألغى الفروق العرقية والعنصرية والجغرافية، يمثّل العنصر الحيوي في تجفيف منابع الحرب وإلغاء أسبابها؛ لأنها حرب قائمة على العصبية، وهي مرفوضة من الدين، لا سيّما في الإسلام، جملةً وتفصيلاً ... وعلى ضوء هذا، فإن الحروب ناشئة غالباً من انعدام الدين، لا من الدين نفسه.

إنّ الدين قد طرح القضايا الإنسانية للطبقات المضطهدة أو المحرومة أو المستعبدة، كعناوين كبرى لحركته في ساحة الصراع، مما يجعل من الحرب التي يخوضها المؤمنون حرباً جهادية إنسانية لا دينية، بالمعنى المباشر التقليدي للدين، وهذا ما نراه في الحرب التي يخوضها الإسلاميون في هذا

(١) من وحي القرآن ٥/ ١٧ ـ ١٩.

العصر ضد المستكبرين والمستغلين والظالمين، بحيث نجدهم يتعاونون مع غير المسلمين من أتباع الديانات الأخرى أو التيارات الأخرى في مواقع اللقاء على طريق الأهداف المشتركة»[١].

الهويّة الدينية بين العُقدة وروحية الانتماء

إن السيد فضل الله رحمه الله حينما يطرح التصوّر القرآني حول العلاقة بين الاحتراب المبني على أساس أيديولوجي وبين الدين الإلهي مبرِّئاً الساحة الدينية من المسؤولية المباشرة عن تلك الحروب الدينية، لا يغفل دور العقيدة الدينية في اندفاع بعض المنتمين إليها في نشوء هذه الظاهرة، مشيراً إلى أن هناك حالةً من العُقدة النفسية بين أصحاب هذه الديانات الإلهية، كانت - ولا تزال - سبباً لكثيرٍ من حالات التوتّر الاجتماعي، ذلك أن «المشكلة التي يعانيها أصحاب الديانات السماوية فيما يختلفون فيه ليست مشكلة الفكر الذي يتنازعون في صحّته وفساده، وليست مشكلة الشريعة التي يختلفون في صوابها وخطئها، بل هي مشكلة الروحية التي يواجهون بها بعضهم البعض، فقد ينطلق البعض من موقع العُقدة التي تحاول أن تتداخل بسلبياتها الخانقة في كل فكر وكل أسلوب، لتنحرف به عن مساره الطبيعي في حالة المواجهة الفكرية، فيتحوّل الأمر إلى حرب بين العواطف والتشنّجات بدلاً من أن يكون حواراً بين الأفكار، ويلفّ الموضوع ذلك الضباب النفسي الحائل دون وضوح الرؤية، مما يؤدّي إلى التشاحن والتباغض، فالحرب في نهاية المطاف»[٢].

(١) م. س ٥/ ١٩ - ٢٠.
(٢) م. س ٨/ ٣٠٤.

والسيد فضل الله ـ حينما يبرّئ الدين من المسؤولية عن شيوع مثل هذه الظواهر ـ يؤكّد أنّ تعدّد الأديان إنما هو ظاهرة تتكامل فيها هذه الدعوات النبوية العظيمة من أجل الخير الإنساني العام، ذلك أن «النبوة الجديدة لا تلغي النبوة القديمة؛ لأن النبوات ليست منطلقةً من شخص النبي في ذاتياته الفكرية، بل من وحي الله الذي يشرّع للحياة كلها وللإنسان كله، في الخطّ العام الذي تتكامل فيه الرسالات وتتوزّع فيه الأدوار، إلا ما يختصّ بمرحلة النبي في الزمن الذي يعيش فيه الناس الذين أُرسل إليهم، والأوضاع التي قد يعرض عليها التغيير، وهكذا كان كل نبي مصدِّقاً لمن قبله في رسالته، وفي الكتاب الذي أنزل عليه»(١).

وحول هذا المعنى يشير إلى «أن الله يريد لكلّ أمة أن تكمل الطريق الذي بدأه الآخرون، فلا تبقى الأقدام دائماً متحرّكة في عملية تراجعية إلى بداية الطريق. فقد جعل الرسالات متتابعة في حياة الأمم، ليكون كلّ رسول متمِّماً لما بدأه الرسول الذي قبله، ولتكون كل أمة امتداداً للأمة التي قبلها، ولهذا أراد الله سبحانه في كل كتاب جديد من كتبه أن يحدِّث رسوله وأمته عن المناهج التي سارت عليها الأمم السابقة؛ ليعتبروا ويعرفوا حركة الساحة التي يعملون فيها، فيما عاشته من تجارب وما واجهته من تحديات، وما بلغته من أهداف»(٢).

---

(١) م.س ٦/ ٣٦.

(٢) م.س ٧/ ١٩٥ ـ ١٩٦.

د) الرسالة دعوة إلى التفكُّر وإعادة النظر

حينما يدرس السيد فضل الله ﷺ ظاهرة تعدُّد الرسالات ودورها في التنوُّع الأيديولوجي والاجتماعي الإنساني، يشير ـ كما سبق أن أشرنا ـ إلى أنّ هذه الرسالات لا تحمل في داخلها روحاً نزاعية وصدامية تجعل من الإيمان حالةً من التعصُّب المقيت المسبِّب لأشكال الاحتراب والنزاع البيني، وإنما هي رسالات كانت كلٌّ منها تمهيداً للأخرى وامتداداً لها.

وحول هذه الفكرة يسلّط سماحته الضوء على زاوية أخرى لهذه الظاهرة، وهي دورها في تمحيص المخلص لفكر وجوهر الرسالة الإلهية من أولئكم التابعين بغير هدى، وذلك انطلاقاً من الآية الكريمة: ﴿وَلَوْ شَاء اللهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَآ آتَاكُم﴾[١]، حيث يشير هناك إلى أن الله لو شاء «لجمع الناس على ملّة واحدة في دعوة جميع الأنبياء، ليلتقوا عليها في الرسالة الخاتمة التي تجمع جميع الخطوط العامّة للرسالات كلها، وذلك بطريقة القدرة الحاسمة التي لا يملك فيها الإنسان اختياره في الانتماء، ﴿وَلَكِن لِّيَبْلُوَكُمْ﴾، أي ليمتحنكم، ﴿فِي مَآ آتَاكُم﴾ من تعدُّد الشرائع حسب اختلاف الزمن، ليظهر عمق الإخلاص له لدى المؤمنين، وسطحية الإيمان به من المتعصّبين المتخلفين»[٢].

ولذلك فإن الحالة الإيمانية ـ وفق النظرة القرآنية التي يطرحها السيد فضل الله ـ حالة تُخرِج الإنسان من جوّ الأُلفة إلى جوّ التفكير؛ «لأن الإخلاد إلى

---

(١) سورة المائدة، الآية: ٤٨.

(٢) من وحي القرآن ٨/ ٢٠١.

المألوف يُبعد الإنسان عن النفاذ إلى عمق الأشياء، ويربطه بالجانب السطحي منها، لتنطلق الحياة في أفكاره من موقع الفكر والتأمّل، فلما كانت قضية خلق عيسى عليه السلام [كمثال] من القضايا التي أثارت كثيراً من الجدل والدهشة، بادر قوم إلى إنكار ولادته من دون أب، ... فجاءت الآية [﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِندَ اللهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾[١]] لتقول لهؤلاء الذين استغربوا ذلك، إن ارتباط تفكيركم بطريقة خلقكم من خلال عملية التناسل الطبيعية أبعدكم - كمؤمنين بالله - عن خلق آدم الذي ترجعون إليه في النسب»[٢].

وهذه النقطة كثيراً ما دعت الآيات القرآنية الكريمة إلى التفكّر حولها، فالدعوة إلى دينٍ جديد هي دعوة إلى إعادة النظر في النظام العام المألوف الذي يحتكم الناس إليه، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾[٣]، ففي هذه الآية الكريمة بيان واضح بأن الرسالات تنكر هذا المنهج في قبول أو رفض أي دعوة جديدة؛ «لأنه يغلق على الإنسان نوافذ التفكير، ويحوّله إلى إنسان منغلق على ذاته، بعيدٍ عن التفاعل مع الآخرين فيما يثيرونه من قضايا ويدعون إليه من أفكار ومبادئ، ويدفع المجتمع إلى أن يبقى مشدوداً إلى عجلة الماضي من دون أن يفكّر في الانطلاق إلى المستقبل بأجنحته الطائرة إلى العلاء، مما يجعله يبتعد عن تطوير حياته وتغيير مسيرته نحو الأفضل في جميع شؤون الحياة»[٤].

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٥٩.
(٢) من وحي القرآن ٦/ ٥٨.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٧٠.
(٤) من وحي القرآن ٣/ ١٧١.

الفصل الثالث



الشخصيّة النبويّة روحٌ إنسانيّة مرتبطة بالغيب



الأنبيـاء ﷺ شخصيـات تاريخيـة، تَعرّفَها كلٌّ منّا عـن طريق ما يقرأ حولهـا من سِيَر وتوثيـق لبعض أحداث التاريخ، وفـي مقدّمة ذلك النصوص الدينيـة، سواءً الكتـب الإلهية (التـوراة والإنجيل والقـرآن) أو من خلال ما يروى مـن أحاديث ومرويـات يتناقلهـا المتدينون جيلاً عن جيـل، وفي هذه النصوص (باستثناء القرآن كما في ثقافتنا الإسلامية) ما يعكس لنا صورةً غيـر حقيقية عن أنبيـاء الله ﷺ، هي بيـن إفراط وتفريـط، فبينما نجد العديد مـن صور التشويه والتحريف لهذه الشخصيات العظيمة، قد نجد في المقابـل العديد من صور المبالغـة والأسطورية، وبين هذه وتلك لا نعدم من وُفّق لتقديم صورة تقترب من الصورة الواقعية التي تعكس مقدار العظمة التي بلغها أنبياء الله ﷺ دون أن يضطرّ إلى إدخال عنصر البطولة الأسطورية القريبـة مـن الخرافة أو الهويّ بهم إلى رذائل الصفـات والممارسات، وكان من بين هؤلاء علاّمتنا السيد فضل الله رحمه الله، حيث مثّلت دراسته لشخصية الأنبيـاء نموذجـاً مهمّاً في تقديم وعرض القيم التي كانـوا يتّسمون بها في مجـال قيامهم بواجب الدعوة إلى الديانات الإلهية الموحاة إليهم، وقد سلك في ذلك منهجاً اتّسم بعناصر محدّدة، كنّا قد سلّطنا الضوء على بعضٍ منها فـي الفصلين الثاني والثالث من هذه الدراسة، وهـا نحن نستكمل بقية هذه العناصر فيمـا يتّصل منها بالصفات النبوية التـي استعرض القرآن الكريم جانبـاً مهمّـاً منها، حيث سنخصّص الحديث في هذا الفصـل عن الأنبياء

وطبيعـة علاقتهم بالدعوة، وذلك في عناوين فرعيـة، نبدأها بتحديد نوعية هذه العلاقة:

أ) النبوّة ميثاقُ تكليفٍ بين الله وأنبيائه

«لم تكن النبوة امتيازاً ذاتيّاً يمنحه الله لبعض الناس من خلال التشريف الشخصي، بل هو عهد بينهم وبين الله بأن يتحمّلوا مسؤولية الدعوة إليه، ويخلصوا في التزامهم بالمسؤوليات التفصيلية فيما يستلزمه ذلك من عذاب واضطهاد وآلام ومشاكل وصبر على ذلك كله، وانفتاح على الناس من الباب الواسع من خلال الكلمة الطيبة والأسلوب الطيب والموعظة الحسنة»[1].

لعلّ هذه النقطة التي يثيرها العلامة السيد فضل الله هي ما يطبع خطابه حول هوية دور الأنبياء فيما يرتبط بعلاقتهم بتبليغ الدعوة، ومن ذلك ما نقرأه له حول الآيتين الثانية والثالثة من سورة الانشراح: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾، حيث عبّرت الآيتان عن الرسالة بأنها ثقل، وذلك فيما يستقربه السيد ﷺ من «أن المراد به ثقل الرسالة فيما كلّف الله به رسوله ﷺ من بذل الجهد الكبير في سبيلها وتحمّل المصاعب من أجلها، ومواجهة التحديات الكبيرة القاسية في طريقها، ثم بدأ الثقل يخف كلما كثر المسلمون وانتصروا على قوى الشرك، عندما دخل الناس في دين الله أفواجاً، فتحمّلوا عن رسول الله الكثير مما كان يبذله من جهد وما كان ينوء به من عبء الرسالة»[2].

---

(١) من وحي القرآن ١٨/ ٢٦٥.

(٢) م. س ٢٤/ ٣١٥-٣١٦.

فالرسالة وفق هذا المفهوم تكليف وعبء أكثر منها مكانة ومنصب تشريفي، حيث يختار الله من عباده من يجد فيه الأهلية لتحمّل مثل هذا العبء إلى حيث نهاية المشوار، وهو ما يعبر عنه القرآن الكريم بالاصطفاء، يقول تعالى: ﴿قَالَ يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي﴾[(١)]، وللاصطفاء مبرر يشرحه العلاّمة السيد فضل الله في تناوله لهذه الآية الكريمة، فيقول شارحاً لها: «اخترتُك من بين الناس لما تملكه من صفاء الإيمان ووضوحه وعمقه، ومن قوّة العزيمة، وصلابة الإرادة، وصدق الموقف، وصبر المعاناة، وهذا ما يجعل للأنبياء صفة مميزة يستحقون بها اختصاص الله لهم برسالاته؛ لأن الذي يحمل الرسالة لا بدَّ أن يعيش روحيتها وأخلاقيتها وأفقها الواسع، ويمتلك الخصائص الفكرية والعملية التي تجعل من تجربته ـ في خط الرسالة وحركتها ـ تجربة ناجحة على مستوى القدوة العظيمة في حساب النتائج الرسالية للحياة»[(٢)].

ولذلك عندما يصطفي الله نبيّاً من الأنبياء يحمِّله عبء تبليغ الرسالة التي يكون ملزماً بتطبيق أحكامها كاملةً كما هي الحال مع من يُبْعَث إليهم، فلا ميزة قانونية له، بحيث يُعفَى من الالتزام بتطبيق الشريعة، وحول هذه النقطة يتحدّث السيد فضل الله ـ منطلقاً من الآية الكريمة: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾[(٣)] ـ فيقول: «ولعلّ في هذا الأمر الموجّه للنبي وللمؤمنين معاً، إيحاء بأن النبي لا يختلف عن المؤمنين في المسؤوليات التفصيلية لخطّ السير؛ لأنه يتحرّك في حياته، بصفته المسلم الأول الذي لا بدّ أن يطبّق الإسلام

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ١٤٤.

(٢) من وحي القرآن ١٠/ ٢٤٠.

(٣) سورة هود، الآية: ١١٢.

على نفسه قبل أن يدعو إليه، ليكون الداعيةَ بالقدوة، قبل أن يكون الداعية بالكلمة، وبهذا يمكننا استيحاء الردّ على الذين يفرضون للنبي تكليفاً غامضاً يختلف عن تكليف بقية المسلمين، فيرون أننا لا نستطيع اعتبار أي عمل يقوم به، لا سيما في خط الجهاد، لأنه أعرف بتكليفه الشرعي الذي قد لا نعرفه»[١].

ب) تنوّع الأنبياء وتعدّدهم

خلق الله الإنسان وفطره على التوحيد، ولكن الإنسان فيه من النوازع الداخلية ما ينحو ـ بسببها ـ نحو الشرّ وعصيان الله ومخالفة ما فُطِرَت عليه نفسه الإنسانية، وبخاصّة عندما تتوفر البيئة الحاضنة لمثل هذه النوازع الشريرة، وعندما يصل الأمر بالمجتمعات الإنسانية إلى أن تكون الظاهرة العامّة فيها نوازع الشرّ والطغيان، يرسل الله من يحيي في ضمائر الناس نوزاع الخير والألفة والمحبة على يد أحد أنبيائه، فيتبعه البعض ويُعرض عنه آخرون.

وبعد فترة من الزمن قد تخفت في المجتمعات البشرية نداءات الخير في ضمائر أفرادها، ليرسل الله لهم من يحييها في نفوسهم من جديد، وهكذا .. حتى كانت نبوة رسولنا الكريم محمد ﷺ خاتمة الرسالات والنبوات.

وهؤلاء الأنبياء كان كل فرد منهم يؤيّد من سبقه ويكمل مسيرته، ذلك أن «النبوة الجديدة لا تلغي النبوة القديمة؛ لأن النبوات ليست منطلقة من شخص النبي في ذاتية الفكرة، بل من وحي الله الذي يشرّع للحياة كلها

---

(١) من وحي القرآن ١٢/ ١٣٩.

وللإنسان كله، في الخط العام الذي تتكامل فيه الرسالات وتتوزع فيه الأدوار، إلا ما يختص بمرحلة النبي في الزمن الذي يعيش فيه الناس الذين أرسل إليهم والأوضاع التي قد يعرض عليها التغيير، وهكذا كان كل نبي مصدِّقاً لمن قبله في رسالته وفي الكتاب الذي أُنزل عليه»[١].

فما كان يتغيّر هي الأدوار التي كان يؤدّيها الأنبياء والوسائل التي كانوا يتوسلون بها من أجل إنجاح الدعوة التي لم تكن موضع خلاف بين الديانات في جوّها وأحكامها ومبادئها العامة، لذلك فإن «إبراز دور معين في شخصية هذا النبي أو ذاك لا يعني تحديد هذه الشخصية، بل كل ما يعنيه هو تميّز المرحلة التي يعيشها بهذا الدور، للحاجة الواقعية إليه ... وبذلك فلا مانع من اشتراكهم في مستوى حمل المسؤولية أمام الله اتجاه الناس، وفي الصفات الذاتية التي تمثّل العمق الروحي في طبيعة الشخصية، وفي الحركة العملية في الدعوة إلى الله، وفي الجهاد في سبيله.

إنّ التنوّع في الخصوصيات الذاتية تابع لتنوّع الأدوار والظروف التي يعيشها الإنسان في ساحة الواقع»[٢].

إنّ مسألة تعدّد الأنبياء وتنوّع تجاربهم، ومن ثمّ تنوّع الأدوات والوسائل المستعملة في تبليغ الدعوة وطريقة التعامل مع الجماعات المواجِهة تعدّ مسألة إيجابية، وذلك لإغناء التجربة النبوية، بحيث يستفيد اللاحق من السابق، وهي فكرة يثيرها المرجع العلاّمة السيد فضل الله، وذلك بقوله -

(١) م. س ٦/ ٣٦.
(٢) م. س ٩/ ٢٠٢.

معلِّقاً على قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنبَاء الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ﴾[١]ـ: «ليعيش [النبي محمد ﷺ] التاريخ الرسالي في حركته الروحية، وفي نماذجه المميزة، كما لو كان في زمانهم، فتنطلق التجربة الحيّة في رسالته، لتكون منطلَقاً للسموّ والصفاء، وانفتاحاً على العبرة الواعية التي تمنح الحاضر درساً متحرِّكاً في تجربته من خلال الماضي في عملية تواصل بين الزمانَيْن كمظهر للتواصل بين الرسالات»[٢].

فالنبوات الإلهية ـ بهذا المعنى ـ تتكامل لا لتكوّن حلقات في سلسلة واحدة فحسب، بل تتكامل فيما بينها إذ يستفيد اللاحق فيها من السابق، فالتجارب النبوية السابقة زادٌ عملي مهمّ يتعامل معه الأنبياء بالاستفادة منه.

وبخصوص تعدّد الأنبياء تُطرح مسألة الأفضلية فيما بينهم، وذلك انطلاقاً من إثارة القرآن لهذه الفكرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾[٣]، وهو أمر لم يغفل السيد فضل الله رحمه الله الإشارة إليه في تفسيره القَيِّم ومعالجته وفق الرؤية القرآنية، حيث يؤكّد في بحثه لهذه الفكرة أن اختلاف الخصائص بين الأنبياء لا ينبغي أن يثير أي نوع من التحدي، فيقول هناك: «إن الله قد تحدّث عن اختلاف الخصائص والدرجات في هذه الآية من دون أن يثير أية حالة من حالات التحدي التي تربط القضية بالجانب الذاتي للنبي، بل اعتبرها أموراً واقعية يتميّز بها الرسل في حركتهم الرسالية.

---

(١) سورة آل عمران، الآية: ٤٤.

(٢) من وحي القرآن ٦/ ١٠.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٢٥٣.

وفي ضوء ذلك، لا بدَّ لنا من أن نلتفت إلى الجهود الكلامية المضنية التي يبذلها علماء الكلام وغيرهم في إقامة البراهين على أن هذا النبي ـ لا سيما نبينا محمد ﷺ ـ أفضل من هذا النبي أو ذاك أو من كل الأنبياء، كما لو كانت القضية من القضايا الأساسية التي تتعلّق بالجانب الحيوي للعقيدة،...

إن علينا أن نتعلم من القرآن أسلوب التعامل مع القضايا الفكرية والعملية وكيف نُجْمِل الأشياء التي لا تحتاج إلى تفصيل، ونفصّل الأمور التي تحتاج إلى ذلك في نطاق العقيدة والعمل»[١].

جـ) الأنبياء في تلقّي الرسالة ونشرها

كنا قد أشرنا أعلاه إلى أن النبوة ميثاق بين الله تعالى وبين من يصطفيهم من عباده لحمل أعباء نشر الرسالة، وهي المهمّة التي يشعر فيها النبي بثقل المسؤولية في صعوبة تحمّل أدائها على أكمل وجه، وكنا قد أشرنا إلى هذا المعنى استشهاداً بالآيتين: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ * الَّذِي أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾ اللّتَين تتحدثان عمّا كان النبي ﷺ يعانيه من ثقل تبليغ الدعوة، وهذا لا يعني بحال أن أنبياء الله كانوا يؤدّون هذه المهمّة بنوع من التكلّف غير المرغوب فيه لولا الواجب الملقى عليهم في ذلك، بل يصور لنا السيد فضل الله النفسية التي يتوجّه الأنبياء بها في تبليغ الرسالة، حيث يؤدّونها بأسلوب وديع نابض بالمحبة، فها هو يتحدّث عن دعوة نبي الله عيسى لقومه، فيقول: «واستمرّ عيسى عليه السلام في دعوته إلى الله بأسلوبه الوديع النابض بالمحبّة، من أجل أن

---

(١) من وحي القرآن ٥/ ٢١ ـ ٢٢.

يقودهم في رحلة الإيمان إلى الله في العقيدة والشريعة، ليعيشوا قصّة الإيمان فكرةً وشعوراً وممارسةً ... ولكنهم أغلقوا آذانهم عن الاستماع إليه»[١].

كما نقف مع نموذج نبوي آخر يذكره العلاّمة السيد فضل الله في تفسيره القيّم، وهو نبي الله نوح عليه السلام، الذي «نستشعر فيه المعنى الإنساني الذي ينطلق به الرسول، ليوحي إلى الناس أنه ليس إنساناً يفكّر بطريقة جامدة ورسمية، تتوسل المفردات القانونية في حساب الجزاء، بل هو إنسان يتحدث معهم بلغة الإحساس والشعور والعاطفة، ... إذ يناديهم فيما يشبه اللهفة الملتاعة ليرجعوا عن غيهم وكفرهم لئلاَّ يلاقوا العذاب الشديد»[٢].

وفي موقع ثالث، يؤكّد السيد رحمه الله هذه الروحية المعنوية العالية التي يتّصف بها الأنبياء في حركة دعواتهم، فيقول: «حدثنا القرآن عن بعض علاقة النبي بالناس في انفعاله بمتاعبهم وآلامهم وفي حرصه عليهم ورأفته بالمؤمنين ورحمته لهم كخُلُق رسالي عفوي، ينطلق معه في استرسال وعفوية، لا في تكلّف وجهد، مما يدلّ على مستوى القيمة الرسالية في علاقة الخلق الإنساني بحركة الدعوة، وذلك في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾[٣]، وقوله تعالى: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظّاً غَلِيظَ الْقَلْبِ لاَنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾[٤]، فإننا نستوحي من الآيتين ـ ولا سيما في الآية الأخيرة ـ أن إنسانية القلب التي تنعكس على إنسانية الأسلوب تطبع العمل بطابعها

(١) م. س ٦/ ٤١.
(٢) م. س ١٢/ ٥٢.
(٣) سورة التوبة، الآية: ١٢٨.
(٤) سورة آل عمران، الآية: ١٥٩.

انفتاحاً وانغلاقاً، وتلتقي بالنتائج الكبيرة في المجال العملي بشكل رائع يلفت النظر،...

وقد حدثنا القرآن الكريم في آيات أخرى عن الحالة النفسية التي كانت تمرّ بالنبي ﷺ أمام عناد قومه وإصرارهم على الكفر، انطلاقاً من إشفاقه عليهم ومحبته لهم، وخوفه على مصيرهم الذي ينتظرهم في الدنيا والآخرة إذا استمرّوا على الكفر.. ونلاحظ في بعض الآيات عمق الشعور الإنساني الذي يجيش في قلبه ويغمر آفاق نفسه، كما في قوله تعالى في الآية الكريمة: ﴿فَلاَ تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِمَا يَصْنَعُونَ﴾[١]، وقوله: ﴿وَلاَ تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلاَ تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[٢]»[٣].

وانطلاقاً من هذه الروحية المُحِبَّة، نجد النبي يواجه حالات الانفعال الطائش من قبَل قومه المعارضين بمزيد من التعقُّل، فعندما يقول الملأ من قوم هود: ﴿إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾[٤]، نجده عليه السلام يردّ عليهم بقوله: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ﴾[٥]، فنبي الله هود عليه السلام يجيب عن سؤالهم هذا «بكل روح هادئة عقلانية، توحي بأننا إذا كنّا نتحرّك في أجواء الدعوة إلى الله، فإن علينا أن نواجه أسلوب السباب والاتهام اللامسؤول بالأسلوب الهادئ الذي يعمل على إثارة التفكير في عقول هؤلاء الشتّامين والمتّهمين، فإن ذلك قد يتحوّل إلى صدمةٍ عقلانية تقودهم

(١) سورة فاطر، الآية: ٨.
(٢) سورة النمل، الآية: ٧٠.
(٣) خطوات على طريق الإسلام ١٤٥ ـ ١٤٧.
(٤) سورة الأعراف، الآية: ٦٦.
(٥) سورة الأعراف، الآية: ٦٧.

إلى الموضوعية في حكمهم على الأنبياء والأشخاص»[١].

ولذلك فإنَّ دعوة الأنبياء لا تخرج عن كونها عرضاً لقيم ومبادئ يبشرون بها أقوامهم بإخلاص عالٍ لما يؤمنون به من مبدأ، يمثلون فيه أعلى درجات القدوة في الإخلاص والتضحية من أجل القيم والمبادئ، وهم في ذلك لا يطلبون أجراً ولا أي مقابل مادي أو معنوي يكافأون عليه، ذلك أن «هدى الله الذي سار عليه الأنبياء كان يقدِّم نفسه إلى الناس منحةً وعطيّةً من دون أجر، بكل محبّة وإخلاص؛ لأن الله أراد للحقيقة أن تعيش في حياة الناس كالنور والماء والهواء، لينفتحوا عليها، بكل بساطة وعفوية، لتلامس أرواحهم وأفكارهم ومشاعرهم من دون حواجز أو عقبات؛ لأن الإنسان الذي يشعر بأنه يدفع الأجر لمن يدعوه إلى اتباع ما يحمله من رسالة، قد يعيش الشعور السلبي بالمعنى التجاري للرسالة، فيما تعنيه التجارة من معنى السلعة للمعوِّض ومعنى الثمن للعِوَض، ومعنى التاجر لمن يقدِّم السلعة، ودور المشتري لمن يدفع الثمن، ... إن الله يريد للرسالة أن تدخل في وعي الناس من خلال روحية الرسول الذي يعيش العطاء بدون مقابل ليعيش الناس الإحساس بأنها حقهم كما هي مسؤوليتهم»[٢].

ولتأكيد مسألة الحرص والمحبة التي ينطلق منها الأنبياء في تبليغهم للدعوة نقف مع السيد العلاّمة رحمه الله فيما صوّره من جوّ إيماني مُحِبّ كان يمثّله أبو الأنبياء إبراهيم عليه السلام، الذي لم يكن يفكر في حاضره وزمانه فقط، بل كان يشغل فكره إيمان الأجيال القادمة، وذلك في قوله تعالى حاكياً

(١) من وحي القرآن ١٠/ ١٦٥.

(٢) م. س ٩/ ٢٠٨-٢٠٩.

عنه عليه السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ﴾[1]، حيث يلتفت رحمه الله إلى هذه النقطة، فيستنتج منها أهمية أن «يعيش العاملون بالله الحُلُم الكبير فيما يحلمون به لمستقبل أولادهم، وذلك بالتركيز على أن يكونوا مؤمنين بالله، عاملين في سبيل إيجاد القاعدة الصلبة للمجتمع المسلم والأمة المسلمة، فتتحوّل التربية في هذا الجوّ إلى التخطيط العملي، الأمر الذي يجعل ارتباط الإنسان بأولاده ارتباطاً رساليّاً يتحرّك في نطاق الحركة الرسالية، لا في موقع العاطفة الذاتية التي تحلم وتفكّر لهم بالنجاح المادي في الدنيا بعيداً عن النجاح الروحي في الدنيا والآخرة»[2].

إن النبي الذي يؤدّي الرسالة بهذه الروحية العالية لا ينسب الدين إلى نفسه، ولا يُقيمُ نفسه مقام صاحب الشريعة الأصل، وهو الله تعالى، ولا تغريه المكانة الاجتماعية التي قد يحصل عليها لانتسابه للدين، فلا يدّعي أموراً غير واقعية، وإنما يكون صريحاً بأنه مجرّد بشر ينزل عليه الوحي، ويؤدّي مهمّة محدّدة، وهي البلاغ الواضح المبين لهذه الرسالة، فلا يجبر أحداً على قبولها، وفي حال قبل البعض دعوته أو رفضها البعض الآخر فإنه لا يملك لهم جميعاً نفعاً ولا ضرّاً، فصاحب السلطان والتصرف المطلقَيْن هو الله تعالى، وحول هذه المعاني نقرأ الآية التالية: ﴿قُل لاَّ أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَآئِنُ اللهِ وَلا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ مَا يُوحَى إِلَيَّ﴾[3]، التي

(١) سورة البقرة، الآيتان: ١٢٨ و١٢٩.
(٢) من وحي القرآن ٣/ ٣٦.
(٣) سورة الأنعام، الآية: ٥٠.

يعلّق عليها السيد فضل الله ﷺ بقوله: «هذه هي الصورة المشرقة الواقعية للشخصية النبوية التي يريد الله للنبيّ أن يقدِّم بها نفسه إلى الناس، فهو لا يريده كائناً غيبيّاً يبرز إليهم من خلال الجوّ الغيبي الضبابي الذي يوحي بِكَوْن ذلك سرّاً خفيّاً مقدَّساً بعيداً عن التصوُّر البشري الطبيعي، ولا يريد له أن يبدو في نظرهم شخصية أسطورية تملك في حوزتها كل خزائن الله الذهبية والفضية ونحو ذلك مما يدخل في عالم التقييم المادي، ... ولا يريده إنساناً يقف بين الناس ليتحدّث عن أسرارهم الكامنة في صدورهم وعمّا ينتظر كل واحد منهم من أحداث المستقبل، على أساس ما يحمله من علم الغيب الإلهي، كما هو دور النبي في تصور الكثيرين، الذين يربطونه بشخصية الكاهن الذي كان يمثّل بعضاً من ذلك، ... ولا يريد له الشخصية الملائكية ليأخذ بألباب الناس فيدهش العقول بأجنحته المتنوّعة المتعدّدة، وقدرته الأسطورية الخارجة عن كل حدّ؛ لأنّ الله يريد للناس أن يؤمنوا به من خلال رسالته بعيداً عن كل أشكال الضغط النفسي أو المادي، وعن كل أنواع الإغراء أو الاستعراض، ... وهكذا أراده أن يقف بينهم عبداً خاشعاً بين يديه، لا يملك أيّة مقوّمات ذاتية كبيرة، أو أيّة قدرات شخصية مطلقة، رسولاً أميناً على الدور الذي أوكله الله إليه، فهو ينتظر أمر الله ووحيه في كل صغيرة أو كبيرة ليتّبعه ويبلّغه للناس، وربما كان الحديث عن الاتّباع موحياً بالصفة المطيعة المتواضعة التي تجسدها شخصيته ليكون في ذلك بعض الإيحاء لهم بالطاعة لله والاستغراق في دور العبد المطيع الذي يتمثّل حركة العبد ـ النبي، في شخصية العبد ـ المؤمن»[1].

(١) من وحي القرآن ٩/ ١١٣ ـ ١١٤.

وفي حركة التبليغ التي يقوم بها النبي، يتحرّك في أدائها مبَشّراً ومرغِّباً في الجنّة، ومنذراً ومرهِّباً من دخول النار، وهو ما توحيه الآية الكريمة: ﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلاَّ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾[١]، حيث نجد أن «قضية الرسالات تتحرّك من أجل إيجاد تفاعل فكري وروحي وعملي بين الرسل والناس من خلال الرسالة التي تبشّر بالنتائج الطيّبة للمؤمنين الذين يعملون الصالحات، وتنذر بالنتائج السيِّئة للمكذّبين بآيات الله، لينطلق الناس في عملية فكر وتأمّل وحوار من أجل مواجهة مصيرهم الذي يتحدّد بالموقف الإيجابي أو السلبي من الرسالة»[٢].

دور المعجزة في حركة الدعوة

إن الأنبياء في أدائهم لمهمّة الدعوة والتبليغ لا تكون الطريق أمامهم ممهّدة، بل تواجههم صعوبات كبيرة، وبخاصّة عندما تكون البيئة ضمن سيطرة سلطانٍ متمكّن، كما هي الحال مع أنبياء الله: إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، حيث كانت دعوتهم وسط مجتمعات يسيطر فيها الحاكم على جميع مفاصل المجتمع، بلغت في بعضها أن يدّعي هذا السلطان الألوهية ـ كما هي الحال مع نبي الله موسى عليه السلام ـ وهذا ما يجعل تحرّك النبي في تبليغ الدعوة تشوبه العديد من العوائق والصعوبات، وبخاصّة ما قد يواجههم من مسألة التعتيم أو التشويه الإعلامي، إذ غالباً ما تكون السلطة الإعلامية بيد الحاكم، ولذلك كان يستعين الأنبياء في حركة الدعوة بالمعجزة، ذلك أنها تحقّق لهم غرضين مهمّين يساهمان في تبليغ الرسالة، أولهما: أنها دليل

(١) سورة الأنعام، الآية: ٤٨.
(٢) من وحي القرآن ٩/ ١١٠.

واضح على ارتباطهم بعالم الغيب والقدرة المطلقة التي تستطيع - منفردةً - القيام بهذا النوع من الإعجاز، وثانيهما: أنها وسيلة إعلامية بارزة، يستطيع النبي من خلالها أن يجمهر الناس حوله ليقول لهم ما يريد، وبخاصّة مع ما تحاوله أجهزة السلطة آنذاك من أن تمنع وصول أقوال وأفعال النبي إلى سائر الناس.

وانطلاقاً من هذه الفكرة، يمكننا أن نفهم عدم ظهور معاجز في سير الدعوة الإسلامية، فنبينا الكريم محمد ﷺ تحرّك في محيط لا تحكمه سلطة متمكّنة، وإنما هو مجموعة من أشتات القبائل المتناثرة، استطاع أن يكسب ولاء وإيمان بعضها، ولم تفلح جهوده مع بعضها الآخر.

ولذلك فإن السيد فضل الله - عندما يتحدّث عن المعجزة التي كان يطالب بها المشركون نبيَّنا الكريم محمد ﷺ - يعلق على هذه الفكرة بقوله: «ويبقى الهاجس الذي يطوف بخيالات المشركين في حديثهم عن النبي هو المعجزة الخارقة التي تدهش النظر بتغيير المألوف من الظواهر الكونية من حولهم، تماماً كما كانوا يسمعونه عن عصا موسى عليه السلام وإبراء عيسى عليه السلام الأكمه والأبرص وإحياء الموتى، ... ولكن المعجزة ليست عملاً استعراضيّاً يقوم به النبي من أجل إبراز قدرته التي تصدم الحسّ، وتلهب الخيال، بل هي وسيلة من وسائل إقامة الحجّة على الناس، فيما يُعتَبَر بيّنة للرسالة في حالات الشكّ والريب في صدقية النبي ورسالته»[1].

وتأسيساً على ذلك، كان بعضهم يرى في كل من يدّعي النبوة أنه ستكون من

(١) م.س ١٥/ ١٧٩.

أحداث سير الدعوة لديه: القيام بأمر خارق ومعجز، لدرجة أن البعض منهم قد يعطيه صفات تخرجه من البشرية، ولذلك كان سلوك الأنبياء في مثل هذه المواقف هو الإصرار على البشرية والانطلاق مع أتباعهم وغيرهم بالواقعية وعدم المبالغة في تصوير ذواتهم وكأنها ذوات خارقة قادرة على كل شيء، يقول رحمه الله حول هذه الفكرة: «﴿وَيَقُولُونَ لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾[١]، ويريدون بها المعاجز البارزة الظاهرة التي تمثّل الإعجاز في حركة الأشياء الطبيعية بتبديلها إلى غير ما هو معتاد ومألوف، ... لأن تفكيرهم مرتبط بالمعروف لديهم من معاجز الأنبياء الخارقة للعادة، ﴿فَقُلْ إِنَّمَا الْغَيْبُ للهِ﴾؛ لأن مسألة المعجزة مرتبطة بالله القادر على كل شيء، وهو قادر على أن ينزل آية، ... فهو بيد الله يتصرّف به كيف يشاء، فلا أملك أمره في قليل أو كثير»[٢].

د) الأنبياء بين الحالتين البشريّة والغيبيّة

لتثبيت قواعد الدعوة وللرفع من مكانة النبي صاحب الدعوة، يؤيّده الله بمجموعة من المعجزات التي يأتي بها النبي دليلاً على صدقه وارتباطه المباشر معه سبحانه.

والنبي أثناء إبلاغه قومه بمسألة النبوة، يكون واضحاً معهم بأن ما يأتيهم به إنما تلقّاه وحياً من الله، وهو الأمر الذي قد يستغربه البعض منهم، وقد يؤمن به الآخر، وبخاصّة بعد الاستدلال على صدق المدّعى بما يملكه النبي من معاجز وبيّنات.

---

(١) سورة يونس، الآية: ٢٠.

(٢) من وحي القرآن ١١/ ٢٨٩.

إن ما يراه المؤمنون من اتصال بين النبي وبين عالم الغيب وما يستتبع ذلك من بعض الظواهر غير الطبيعية (الوحي + المعجزات) غالباً ما يعزّز الشعور بتفوّق النبي على غيره من بني جنسه، فيُصوِّرونه بطلاً خارقاً للعادة، تتغلّف حياته العامّة والخاصّة بهالة من القدرات الخارقة في الإتيان بغرائب الأمور وغيبيات الأحداث، فيصبغون على الأنبياء صفات ترتفع بهم عن الحالة البشرية.

ولذلك نجد في الآيات القرآنية تشديداً متكرِّراً على نفي أيّة صفة غير بشرية للأنبياء، باستثناء مسألة الوحي، وهو تأكيد تنقله الآيات على لسان الأنبياء أنفسهم، يقول تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ﴾[(١)]، حيث يؤكّد نبينا محمد صلى الله عليه وآله بأنه «ليست له شخصية ذاتية تختلف عن شخصيتهم، وليس له أي سر في قدراته الجسدية تختلف عن قدراتهم، ... ولكن الفرق بينه وبينهم هو أنه رسول الله إليهم، فهو يتلقّى الوحي من الله في وعي كامل لحقيقته، ثمّ يُبلّغهم إياه ليبشّرهم بما ينتظرهم من ثواب في خط الطاعة، وينذرهم بما يواجههم من عقاب في خطّ المعصية»[(٢)].

ولذلك عندما يدرس السيد فضل الله الشخصية النبوية، كان يشدّد على دراسة الحالة البشرية في النبي، أكثر مما يؤكّد على دراسة المسألة الغيبية في هذه الظاهرة، فعندما يتناول قصّة نبي الله نوح عليه السلام وإعراض قومه عنه بحجّة أن الرسالة الإلهية لا يكون حَمَلتُها من البشر العاديين، نجده رحمه الله يعلّق على ذلك- من خلال شرحه للآيتين ٢٧ ـ ٢٨ من سورة هود ـ

---

(١) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٢) من وحي القرآن ١٤/ ٤٠٥.

بقوله: «ما المانع من أن يكون البشر رسولاً ما دامت مسؤولية الرسول لا تمثّل حركةً في الغيب، بل هي حركة في الواقع، خاضعة للخصائص التي يملكها العاملون في ساحته؟!»[١].

وهي الفكرة ذاتها التي يؤكّدها في تعليقه على الآية الكريمة: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلاَّ رِجَالاً نُّوحِي إِلَيْهِمْ﴾[٢]، حيث يشير هناك إلى أن أنبياء الله «لم يتميّزوا بشخصيةٍ فوق إنسانية، كما لم يملكوا قدرةً غير عادية، بل كل ما اختلفوا به عن الناس الآخرين: اتصالهم غير العادي بالله عن طريق الوحي، أما المعجزات التي تمثّل الأعمال الخارقة للعادة، فقد كانت حالةً طارئة استثنائية، اقتضتها ظروف التحدّي التي سعت لإسقاط الرسالة أمام جماهير الناس البسطاء؛ لأن مهمّة النبي هو أن يُبَلِّغ الناس رسالة الله بالوسائل التي يستخدمونها عادةً للإقناع، من حيث الأسلوب والمنهج، بعيداً عن أيّة حالة غيبية، وليس من مهمته أن يغيِّر للكون نظامه، أو أن يكشف للناس خفايا حياتهم، أو أن ينبئهم بأحداث المستقبل، إلا في نطاق ما أراد الله له أن يبيّنه من خلال وحيه له، في كتابه، أو فيما أراد له أن يبيّنه بطريقته الخاصّة»[٣].

ويعلّق على هذه الفكرة في موضع آخر، فيقول: «وليس من شأن الرسالة أن تغيّر الكون في نظامه الكوني، بل إن دورها أن تغيّره في نظامه الإنساني العملي، فالرسالة تفرض الدعوة بالفكر وبالقدوة، فلا بدّ من أن يكون الرسول من الناس، ليكون تجسيده للرسالة في سلوكه أساساً للإيمان بواقعية الفكرة

---

(١) م. س ١٢/ ٥٥.
(٢) سورة النحل، الآية: ٤٣.
(٣) من وحي القرآن ١٣/ ٢٣١ ـ ٢٣٢، مختصراً.

التي يدعو إليها، ومن خلال خصوصيته البشرية»[١].

ولذلك، فإن السيد فضل الله رحمه الله عندما يستعرض بعض الصفات النبوية، لا يضعها في سياق غيبي وغير طبيعي، بل يُصوِّرها تصويراً طبيعيّاً، فتجده يطرح مسألة أهمية البيئة/ المحيط الذي ينشأ فيه النبي في تكوين هذه الشخصيات الفذّة، ذلك أن «المحيط الإيماني الذي عاشوا فيه، والبيئة التي انتموا إليها، من آبائهم وذرياتهم وإخوانهم الذين عاشوا الخطّ الإلهي فكراً وأسلوباً وعملاً، أدى إلى نمو الأجيال الذين ساروا عليه، وطريقهم الذي عاشوا فيه»[٢].

وحول لقاء نبينا الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم بجماعة من الجنّ، لا نجده يعطي ذلك البعد الغيبي الأسطوري، بل ينفي عن النبي أنه أَلِف مثل هذه الأجواء، فيقول رحمه الله: «لم يعش [النبي] تجربة اللقاء بهم [الجن] والحديث معهم، بل كانت معرفته صلى الله عليه وآله وسلم بالموضوع ناتجة عن تعريف الله له ذلك عن طريق الوحي»[٣].

ظاهرة الوحي حلقة في تنفيذ مهام الرسالة

وحينما يدرس السيد فضل الله ظاهرة الوحي، يعدّها حلقةً ضمن سلسلة وظائف يتلقّاها الأنبياء، حيث «تلتقي في شخصية النبي الذي يختاره الله: دور النبي الذي حمل الكتاب وحياً من الله، ويعيش النبوة رسالةً في حركة الحياة من حوله، لما يفرض ذلك الدور من وصل بين عالمي الحسّ والغيب

---

(١) م. س ١٤/ ٢٣٤ ـ ٢٣٥.
(٢) م. س ٩/ ٢٠٣.
(٣) م. س ٢٣/ ١٤٩.

في حياة الإنسان، وإضافةً إلى ذلك: دور الحاكم الذي يحرِّك الرسالة في الواقع التنفيذي الذي تلتقي فيه النظرية بالتطبيق، فيما أراده الله للإنسان من القيام بالقسط في مجالات حياته العامّة والخاصّة، فكان الكتاب [الوحي] هو الذي يخطّط شِرعة العدل، وينظّم ركائزه وقواعده، وكان النبي هو الذي يطبّق ويحكم، وليتحوّل الخطّ إلى حركة حياة»(١).

واستكمالاً لبيان مفهوم الوحي، يتحدّث السيد فضل الله أثناء شرحه للآية الكريمة: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً﴾(٢) عن دور الوحي في حياة الأنبياء، وذلك بعد أن يتناول ما يُثار حول هذه الآية من تفريقٍ بين منزلَتَيْ النبوة والإمامة التي تتحدّث عنها الآية، نافياً أن يكون هناك أية دلالة تحملها الآية حول هذا المعنى، ومشيراً إلى أن «الوحي الذي ينزل على النبي أو الرسالة التي يحملها الرسول، ليسا تعبيراً عن حالةٍ ثقافية في وعي النبي ترتبط بذاته أو تنفتح على غيره في عملية سماع مجرّد لآياتها، بل هما معنيان حركيان في عملية الاهتداء والاقتداء والمتابعة، وهذا ما نلاحظه في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلاَةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾(٣)، وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾(٤)، فإن الصفات المذكورة للأئمة [في الآيتين] هي صفات الأنبياء في مهمة نبوتهم ورسالتهم، من الهداية بأمر الله والوحي المنفتح على فعل الخيرات، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة،

---

(١) م. س ٩/ ٢٠٤.

(٢) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.

(٣) سورة الأنبياء، الآية: ٧٣.

(٤) سورة السجدة، الآية: ٢٤.

من خلال وعيهم اليقيني لآيات الله، وصبرهم الحركي في مواجهة التحديات والعقبات من قبل أعداء الله»[1].

والسيد فضل الله رَحِمَهُ ٱللَّهُ هنا يَعُدُّ ظاهرة الوحي وسيلةً يُنزِلُ اللهُ بها الرسالةَ على قلب نبيّه الكريم، لتستمرّ معه هذه الحالة/ الظاهرة في جميع مراحل الدعوة؛ لأنها تمثّل ضرورةً في مسألة التسديد والعون للنبي في مسيرته الدعوية، وذلك لما يمثّله شخص النبي من دور القدوة والهادي إلى فعل الخيرات، والمرشد للرؤية الصحيحة حول مهمّات المسائل الدينية، وذلك لما تختزنه كلمة (الإمامة) من معنىً حول مضمون الائتمام الذي يعني الاقتداء والمتابعة.

وكما يطرح السيد فضل الله للوحي وظيفة التسديد للأنبياء فيما يخدم مسيرة الدعوة، يستعرض له وظيفةً أخرى، وذلك فيما يقدّمه الوحي للنبي من مهمّة في عرض التجربة الرسالية السابقة، وذلك «ليعيش النبي التاريخ الرسالي في حركته الروحية وفي نماذجه المميزة، كما لو كانت في زمانه، فتنطلق التجربة الحيّة في رسالته لتكون منطلقاً للسموّ والصفاء، وانفتاحاً على العبرة الواعية التي تمنح الحاضر درساً متحرِّكاً في تجربته من خلال الماضي في عملية تواصل بين الزمانَيْن، كمظهر للتواصل بين الرسالات»[2].

---

(١) من وحي القرآن ٣/ ١١.

(٢) م. س ٦/ ١٠.

العصمة امتداد للفطرة الإنسانية السليمة

ما نؤمن به ـ نحن المسلمين ـ هو عصمة الأنبياء ﮎ، وهي الصفة التي لا نتصوّر معها أن يقوم النبي بأي معصية أو أن يبلِّغ الدين بصورة مغايرة لما هو عليه واقعاً، سواءً كان ذلك في صورته النظرية أو في الممارسة العملية لأحكامه، وهي الصفة التي ـ مع الإيمان بها ـ يحصل معها نوعٌ من الثقة والاطمئنان فيما يرتبط بتلقي وتطبيق أحكام ومبادئ الدين الإلهي.

إن الاعتقاد بهذه الصفة في الأنبياء ﮎ كما يُعَدُّ أمراً ضروريّاً ومهمّاً ليحصل ذلك الاطمئنان العالي لدى المؤمنين، يعدّ ـ في حال تفسيرها تفسيراً مغرقاً في الغيبية ـ أمراً يَخرُج به النبي من الحالة الإنسانية الطبيعية إلى شخصية ذات مواصفات خارقة تُخرجه عن الحالة الطبيعية، وهي حالةٌ تتعارض والصورة التي ترسمها الآيات القرآنية التي تؤكّد بشرية النبي، من خلال ما تصوّره بعض الآيات من حالات الضعف البشري التي يمرّ بها النبي، يتساوى فيها مع أي إنسان آخر.

ولذلك فإن السيد فضل الله عندما يدرس مسألة العصمة يقدّم لها تصوُّراً ينسجم والحالة البشرية للنبي، ذلك أن السيد ﭬ يؤكّد أن «شخصية النبي لا تعيش ازدواجاً في واقع الإنسان، فالإنسان الذي لا ينسى في مسألة التبليغ لا ينسى في المسائل الأخرى، والإنسان الذي ينطلق بالحقّ في التشريع وفي التبليغ، لا بدّ له أن ينطلق بالحقّ في الجوانب الأخرى؛ لأنه لن يكون كذلك إلا إذا كان الحقّ أساسيّاً في شخصيته.

وهناك نقطة أخرى في مسألة العصمة، وهي أن العصمة حينما تكون

بهذا الشكل غير العادي الذي لا يمكن أن يملكه الإنسان، ليس من خلال تجربته الخاصّة بحيث يمتنع عليه ـ ولو امتناعاً وقوعيّاً ـ أن يُخطئ أو أن ينحرف، بل لا بدّ أن يكون هناك فيض من الله على نفس هذا النبي أو هذا الإمام، بحيث يمتنع عن الانحراف وصدور الباطل منه»[١].

والعصمة في تصوّر السيد فضل الله لا بدّ أن تنطلق من عمقٍ روحيٍّ يعيشه النبي، لا أن تكون مجرّد حالة التزامية قانونية يمتثل فيها لأوامر الله عزّ وجل، فيقول حول هذا المعنى: «وقد نلاحظ في هذا المجال، أن مسألة حدود العصمة، فيما يراد من خلاله تأكيد القيمة الأخلاقية المنفتحة على الله في القيام بما يحقّق رضاه في أفق محبته، لا يكفي فيها التركيز على ترك المعصية، بل لا بدّ من الانفتاح على العمق الروحي الذي يتناسب مع قيمة النبوّة في جانب القدوة الرسالية منها»[٢].

وتطبيقاً لهذه النظرة، نستعرض مثالين يعالج فيهما السيد رحمه الله مسألة حدود العصمة، وعلاقة ذلك بالجانب البشري في النبي، وهما:

المثال الأول: أثناء حديثه حول الآيات ١٤٨ ـ ١٥٤ من سورة الأعراف التي تتحدّث عن ميعاد الله للنبي موسى وما أحدثه قومه من عبادة للعجل، حيث نجده يتحدّث عن هذا المقطع من الآية: ﴿وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ﴾[٣]، فيقول: «كان ذلك تعبيراً صارخاً عن الحالة النفسية التي كان يعيشها موسى إزاء ما حدث، وربّما تحدّث الكثيرون عن مبدأ

(١) في رحاب أهل البيت ١/ ٤٠٥ـ٤٠٦.
(٢) من وحي القرآن ١٩/ ٢٦١.
(٣) سورة الأعراف، الآية: ١٥٠.

العصمة في شخصيته كنبيٍّ، وعن التساؤل الإيماني في مدى انسجام هذا التصرُّف الغاضب مع هذا المبدأ، ولكنّنا لا نجد تنافياً بينهما إذا أردنا أخذ القضية ببساطة بعيداً عن التعقيد والتكلُّف، فموسى بشرٌ يغضب كما يغضب البشر، ولكن الفرق بينه وبينهم أن لغضبه ضوابط، فلا يتصرّف بما لا يرضي الله، ولا يغضب إلا لما يرضاه الله. وقد غضب على قومه لله، وعلى أخيه هارون للغرض نفسه.

لقد اعتبر أخاه مسؤولاً عمّا حدث بسبب تساهله معهم، وعدم ضغطه عليهم ومنعهم من ذلك، فقد كان تقديره، أنه إذا رفع درجة الضغط، يمكن أن يساهم ذلك في منع ما حدث ـ مما لم يقم به هارون ـ فكان موسى منسجماً مع نفسه، ومع دوره وصفته فيما اتخذه من إجراء مع هارون، ...

وشعر موسى بالحرج، وسكن غضبه، فرجع إلى الله يستغفره لنفسه ولأخيه، لا لذنب ارتكباه، ولكن للجوّ الذي ابتعد فيه القوم عن الله، من خلال الفكرة التي كانت تلحّ عليهما،...

وتبقى حول فكرة العصمة بعض التساؤلات: كيف يخطئ هارون في تقدير الموقف وهو نبي؟ أو كيف يخطئ موسى في تقدير موقف هارون وهو النبي العظيم؟ وكيف يتصرّف معه هذا التصرُّف؟

ولكننا قد لا نجد مثل هذه الأمور ضارّةً بمستوى العصمة؛ لأننا لا نفهم المبدأ بالطريقة الغيبية التي تمنع عن الإنسان مثل هذه الأخطاء في تقدير الأمور، بل كل ما هناك أنه لا يعصي الله فيما يعتقد أنه معصية، أما أنه لا يتصرف تصرُّفاً خاطئاً يعتقد أنه صحيح مشروع، فهذا ما لا نجد دليلاً

عليه، بل ربما نلاحظ في هذا المجال أن أسلوب القرآن في الحديث عن حياة الأنبياء ونقاط ضعفهم، يؤكّد القول بأن الرسالية لا تتنافى مع بعض نقاط الضعف البشري من حيث الخطأ في تقدير الأمور»[١].

المثال الثاني: أثناء حديثه عن محاولة زليخة زوجة عزيز مصر إغواء نبي الله يوسف عليه السلام في شرحه للآية: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا﴾[٢]، إذ يقول هناك: «﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ﴾ في اندفاعها نحوه، من أجل أن تحتويه بكل ما لديها من عاطفة وشهوة وإغراء في حركة ضاغطة مشبوبة من موقع الضعف الأنثوي الغريزي الذي لا يرتكز في الجانب الآخر من الشخصية على قاعدة من العقل والإيمان اللذين يمكن لهما أن يحقّقا حالةً من التوازن والانضباط، ... ﴿وَهَمَّ بِهَا﴾ في حالة شعورية طبيعية، يتحرّك فيها الإنسان غريزيّاً من دون تفكير؛ لأن من الطبيعي لأيّ شابّ يعيش في أجواء الإثارة أن ينجذب إليها تماماً، كمن تتحرّك غريزة الجوع في نفسه بكل إفرازاتها الجسدية عندما يشمّ رائحة الطعام، وهذا أمر يلتقي فيه المؤمن بغير المؤمن؛ لأنه من شؤون الإحساسات الغريزية للجسد، ... وهكذا نتصور موقف يوسف عليه السلام، فقد أحسّ بالانجذاب نحوها لا شعوريّاً، وهمّ بها استجابةً لذلك الإحساس، كما همّت به، ولكنه توقّف وتراجع، ورفض الحالة بحزم وتصميم؛ لأن موقفه ليس متعمَّداً، كما هو موقفها»[٣].

(١) من وحي القرآن ١٠/ ٢٤٩ ـ ٢٥١.
(٢) سورة يوسف، الآية: ٢٤.
(٣) من وحي القرآن ١٢/ ١٨٦.

وتحت عنوان: «هل في الآية ما ينافي العصمة؟» يعلّق على ما ذهب إليه من تحليل لمعنى الآية بقوله: «لقد تحدّث المفسرون كثيراً عن تأويل هذه الفقرة لما لها من علاقة بعصمة يوسف عليه السلام، معتبرين أنه قد لا يكون نبيّاً آنذاك، ولكن رأي الكثيرين أن العصمة تسبق النبوّة، كما تلحقها أو ترافقها، ويرى بعض آخر أن النبي إذا لم يكن معصوماً قبل البعثة، فمن الطبيعي أن يكون ذا مناعة أخلاقية لا تسقط أمام أية حالة من حالات الإغراء، ...

ولكننا في الوقت الذي نلتقي مع هؤلاء في جوّ الفكرة، مع بعض التحفّظات في تفاصيلها، نعتقد أن العصمة، أو المناعة الروحية، أو القوة الأخلاقية، لا تتنافى مع الحالة الإنسانية التي تخضع لعوامل التأثّر الطبيعي الإنساني بالرغبة والرهبة، بل إن كل ما تؤمّنه، هو الالتزام الفكري والروحي والعملي بالخط المستقيم، فلا ينحرف في موقف، ولا يسقط في تجربة، أما التهاويل والخطرات والمشاعر، فهي أمورٌ طبيعية، لذلك فلا مجال لإثارة الشبهة حول موقف يوسف عليه السلام، كما يظهر في الآية، مما يدفع إلى كثير من التأويل والتكلُّف الذي يبتعد عن المضمون الحقيقي لها»[1].

(١) م. س ١٢/ ١٨٨.

الفصل الرابع



حركيّة الدين في الواقع الإنساني

حينما نصف ظاهرة النبوة وما تبشّر به من نظام اجتماعي يحتكم إليه الناس فيما بينهم، فإننا نصفها بأنها «دعوة» إلى الإيمان بما أوتي النبي من رسالة إلهية، إما أن يقبلها أولئكم القوم أو يُعرِضوا عنها، ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاء فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاء فَلْيَكْفُرْ﴾(١)، فلا يُكرَه الإنسان على قبول ما يعتقد به من دين أو ما يتمذهب به من اتجاه، ذلك أن الدين في واقعه إيمان بمجموعة من القيم والمبادئ ذات الأحكام التفصيلية المحقّقة لها، والإنسان يعتنقه بملء إرادته، ولا يمكن فرضه أو إكراهه عليه.

أ) العلاقة بين العقل والإيمان

ولقبول الدعوة النبوية أو رفضها، يحتكم الإنسان إلى ما وهبه الله من نعمة العقل الذي يميّز به بين الحق والباطل وبين الصواب والخطأ، ولذلك يؤكّد السيد فضل الله رحمه الله في دراسته لهذه الظاهرة أهمية العقل أساساً للإيمان وقبول الدين، فنجده أثناء حديثه حول الآيتين ١٢٧ و١٢٨ من سورة طه ﴿وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِن بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى * أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُوْلِي النُّهَى﴾ يشير إلى أن سرد بعض الأحداث التاريخية في القرآن الكريم بهدف أن يتعظ بها «أصحاب العقول الذين يحاولون أن يثيروا

---

(١) سورة الكهف، الآية: ٢٩.

التفكير فيما يشاهدونه ليحلّلوا الفكرة التي توحي بفكرة أخرى، ليخرجوا بالنتيجة الواقعية، وهي أن مواقع القوّة الطارئة التي يملكها الكثيرون من الناس فيطغون ويعيثون في الأرض فساداً لا تدوم لهم»[١]، ثم يختم حديثه هذا بالإشارة إلى أن «قيمة العقل [هي] عندما يتحرّك ليواجه الأمور بدقّة وموضوعية، لينتهي إلى النتائج الصحيحة، من موقع المسؤولية عن الفكر والحياة، بعيداً عن الانفعال، أو الانجرار تحت تأثير وضع تقليدي أو نفسي أو اجتماعي؛ لأن ذلك هو الذي يحفظ للفكر توازنه، وللحياة ثباتها وقوّتها واستقامتها في الاتجاه السليم، ولذلك كان التوجيه القرآني يؤكّد على قيمة العقل كأساس للمعرفة والإيمان، وعلى دور أصحاب العقول، كنموذج للفئة الواعية المؤمنة التي تحمل مسؤولية الحياة من موقع الحسابات العقلية الدقيقة»[٢].

وحول هذه الفكرة، يتحدّث السيد فضل الله ﷺ عن محاربة القرآن الكريم لمسألة التعصّب الأعمى المبني على العاطفة والانجذاب للماضي والمألوف، وهي الحالة التي سمّاها: «الظاهرة الآبائية»، نسبة إلى ما تردّده الآيات القرآنية ـ على لسان المعارضين للدعوات النبوية ـ من تمسّك بتراث وفكر الآباء، ذلك أن الإيمان بالدين الذي يدعونا أنبياء الله إلى اعتناقه إنما يكون بالاعتقاد به مبدأً حياتيّاً لنا، يقول ﷺ: «وإذا كان القرآن يركّز على المسألة في نطاق الآباء، فليس ذلك من أجل اختصاص الظاهرة بهم، ولكن الواقع الذي يعيشه الناس ـ غالباً ـ في الاتباع الأعمى

(١) من وحي القرآن ١٥/ ١٧٣.

(٢) م. س ١٥/ ١٧٤.

في تقليد الماضي هو واقع اتباع الآباء والأجداد الذين يمثّلون في الوجدان العائلي أو العشائري العمق الذاتي للإنسان في جذوره التاريخية، بالدرجة التي يشعر معها بأن امتداداتهم الفكرية في حركته تمثّل العنوان الكبير لوجوده، ...

إنها مسألة العصبية التي لا ترى الأشياء إلا من خلال ذاتية النسب أو العنوان الذي يطبع الناس بطابعه، لتكون القداسة للعنوان بعيداً عن المضمون في قيمته الفكرية والحضارية، وهذا ما يعطّل عملية التجديد والتغيير ويحبس الفكر في دائرة ضيّقة تتصل بالماضي ولا تنفتح على الحاضر والمستقبل، الأمر الذي يجعل منها سجناً للعقل وللحركة وللحوار، وخنقاً للحرية في كل الموارد التي يختلف فيها قادة الحاضر عن قادة الماضي»[١].

وفي موقع آخر يشدّد السيد فضل الله على أن «المنهج القرآني يوجّه الناس إلى اعتبار الفكر أساساً للعقيدة بعيداً عن الطرق غير العلمية، مما يعتمد على الحدس والتخمين والاحتمال. وعلى ضوء ذلك، فهو يعتبر الاتجاهات المعتمدة على التقليد في العقيدة انحرافاً عن الخط الإسلامي في طريق الوصول إلى الحق، ...

وفي ضوء ذلك، نعرف أن الإسلام لا يشجّع التقليد في العقيدة عندما يشجّع الآخرين على الدخول فيه بدون استدلال برهاني، بل يعمل على أن يحقّق هدفين:

---

(١) م.س. ٣/ ١٧٤ ـ ١٧٥.

أحدهما: تحطيم الحواجز النفسية التي تفصل النفس عن الانفتاح على الإسلام، وذلك بإيجاد روح الألفة بين الإنسان وبين الأجواء الدينية في الإسلام، ليستطيع ـ من خلال ذلك ـ أن يلتقي بالمفاهيم الإسلامية ببساطة خالية من التعقيد.

ثانيهما: التخطيط للتربية الفكرية من الداخل، لتعميق العقيدة من موقع الشعور بالحاجة إلى العمق كنتيجة لتعميق الانتماء إليها على أساس من جدية الإحساس ومسؤولية التفكير في نطاق الشخصية الإسلامية التي تعيش في داخله وتمتدّ في حياته»[١].

ولذلك فإن السيد فضل الله ـ وانطلاقاً من الآية: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّىَ تُقِيمُواْ التَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾[٢] ـ يَعُدُّ الانتماء الحقيقي للدين لا يكون من خلال الانتماء التاريخي لهذه الأديان، فذلك «مما يجعل من اليهودية والمسيحية والإسلام صفات تمسّ الإطار القومي، الذي يحوّل هذه الجماعات إلى قوميات دينية متنوّعة، بدلاً من الإطار الفكري الذي يحولها إلى مجتمعات فكرية مختلفة، مما يؤدّي إلى تجميد حركة الفكر في داخل عملية الصراع الفكري في الخطّ الديني، وتحويله إلى حركة تختزن الأحقاد التاريخية، وتتحدّث عن الامتيازات الحاضرة، وتواجه الموقف بذهنية الأمور الثوابت في قضايا العقيدة، لا بذهنية الأمور القابلة للحوار»[٣].

---

(١) م.س ٣/ ١٧٩ ـ ١٨٠.

(٢) سورة المائدة، الآية: ٦٨.

(٣) من وحي القرآن ٨/ ٢٧٣ ـ ٢٧٤.

واستكمالاً للحديث عن أهمية العقل في الإسلام ونبذ حالة التقليد الأعمى للماضي، يوسّع السيد فضل الله نقده لأي مظهر من مظاهر الانسياق والاتباع غير المدروس واللاواعي، سواءً كان ذلك تقليداً للماضي، أو تبنياً للأعراف القائمة، وذلك انطلاقاً من حديثه حول الآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا للهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾[١]، حيث يشير هناك إلى أن الرسول ﷺ كان يرشد قومه إلى «منهج التفكير وطريقة إدارة القضايا المتنازع عليها في الجوّ والأسلوب والحركة؛ لأن مشكلتهم هي أنهم لا يحرّكون الأسلوب بطريقة هادئة، ولا يحدّدون المنهج العقلاني الذي يعتمد على الموضوعية في مناقشة الأمور وإطلاق الأحكام، وإلّا فإن النبي ﷺ لن يستطيع الوصول إلى أية نتيجة حاسمة معهم إذا أراد أن يردّ الكلمة المعادية التي يطلقونها ضدّه بشكل مباشر، بل لا بدّ له من أن يثير أمامهم مسألة المنهج، ليقودهم إلى الطريقة المثلى في إثارة الأمور ومعالجة القضايا ومناقشة الظواهر، والوصول إلى تكوين القناعات من خلال ذلك كله، ...

فَلْيَتَفرّقوا فرادى، وَلْيَجْلِسْ كل واحد منهم مع نفسه، ليخلو إلى عقله ويفكر، أو ليتفرّقوا مثنى مثنى، ولْيجلس كل واحد منهم إلى صاحبه، ويفكر معه بحسابات هادئة متزنة، ومناقشة عاقلة دقيقة في ظل حالةٍ فكرية هادئة، تنطلق منها الشخصية الفردية المفكرة، ليكون الفكرُ فكرَ المجموع من خلال فكر الجميع، لا فكر المجموع من خلال انفعال المجموع»[٢].

---

(١) سورة سبأ، الآية: ٤٦.

(٢) من وحي القرآن ١٩/ ٦٤، مع تصرف قليل.

وفي تعليقه على الآية الكريمة: ﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾[١]، يقول ﷺ: «تؤكّد هذه الآية قيمة العقل الكبيرة ـ الذي يعبِّر عنه القرآن بالقلب ـ في حياة الإنسان التي تدفعه إلى أن يعقل ويهتدي به، فلا يجمّده ويستسلم إلى رواسبه المتخلّفة ليشدّه إلى عمق الهاوية في المصير. إن هذه اللفتة توحي بأن للعقل مركزاً حيويّاً في معرفة الإسلام، باعتباره القوّة الحقيقية التي تخطّط للحياة من موقع الثبات والتوازن والعمق والانفتاح .. وأن المجتمع العاقل هو المجتمع الذي ينفتح على الإيمان بالله من أقرب طريق، ويتحرّك في الحياة من موقع المسؤولية، ... وأنّ هذه اللفتة القرآنية في تأكيدها على دور العقل تفرض على القائمين على شؤون الإسلام في الدعوة والواقع العمل على التخطيط لحركة عقلية نشيطة داخل الشخصية الإسلامية، ليستطيع المجتمع الإسلامي أن ينمو ويتطوّر من مواقع العقل الذي يحقّق له الاستقلال والإرادة في التفكير، وفي اتخاذ القرار المتوازن، كما يحقّق له القوة في مجالات الصراع الفكري بين الإسلام وخصومه الفكريين»[٢].

الحوار الفكري مقدّم على المعجزة

وتأكيداً على دور العقل في مسألة الإيمان بالدين، يؤكّد السيد فضل الله على أن الحوار الفكري مقدَّم على المعجزة في إقامة الدليل على صدق الدعوة ومبادئها المحقّة، وذلك استشهاداً بالآيات (٦١ ـ ٦٥) من سورة هود التي تتحدّث عن قصّة نبي الله صالح مع قومه وما أتاهم به من معجزة الناقة التي حدثت بعدما كذبوه في حواره معهم، حيث كان ردّ النبي على تكذيبهم

---

(١) سورة الحج، الآية: ٤٦.

(٢) من وحي القرآن ١٦/ ٩١ـ٩٢.

له قوله عليه السلام: «﴿يَا قَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾[١] فيما أعيشه من إيمان بالله وبالرسالة وبالوحي الإلهي النازل عليّ، كأيّ إنسان يعيش المعاناة الداخلية والحسيّة لاتصال قناعاته بالوجدان، ﴿وَآتَانِي مِنْهُ رَحْمَةً﴾ فيما كلّفني به من حمل الرسالة، ومنحني إياه من صفة النبوة، فهل أترك ذلك كله، لأسير على أهوائكم، وأجتنب هداه، لتمنحوني بعض امتيازات ثقتكم؟ وما الذي أنتفع به من ذلك؟ ثم ماذا تفعلون لي إذا تمرّدت على الله ورفضت رحمته وجحدت بيّنته، وأراد الله أن يعاقبني على ذلك، وهو القادر عليّ في كل وقت وفي كل مكان؟، ﴿فَمَن يَنصُرُنِي مِنَ اللهِ إِنْ عَصَيْتُهُ﴾، إنكم لا تستطيعون فعل شيء أمام الله، ولا تملكون لي ولا لأنفسكم نفعاً ولا ضرّاً إلا بإذن الله، ...

وبعد هذا الحوار، ينتقل الحديث إلى مجالٍ آخر، فقد أراد الله لصالح أن يجرّهم إلى الإيمان عن طريق آخر غير طريق الحوار الفكري، وذلك بتقديم الناقة العجائبية التي كانت آية من آيات الله، ليفكّروا بمسألة الإيمان في هذا الاتجاه، باعتبار أن ذلك قد يكون دليلاً على صدق النبي صالح في دعوى النبوة»[٢].

ب) الدين في رعايته للمصلحة العامّة

حينما تصف الآيات القرآنية دور الأنبياء في تبليغهم الرسالة إلى أقوامهم فإنها تقدّمهم «مبشّرين ومنذرين»، وهاتان الصفتان تكشفان

---

(١) سورة هود، الآية: ٦٣.

(٢) من وحي القرآن ١٢/ ٩٢.

عن أسلوب كان يمارسه الأنبياء في عرض الدين، وذلك بأنه - بالدرجة الأولى - يمثّل مصلحة للفرد قبل أن يكون في مصلحة المجموع، ذلك أن البشرى والإنذار هما العاقبة اللّتان تنتظران الإنسان من خلال موقفه من هذا الدين، فالإنسان - بمفرده - هو المبشَّر بالجنة أو المنذَر من دخول النار، ولعلّ في ذلك حكمةً، إذ من المحتمل - قويّاً - أن يكون في ذلك من الدافع الذاتي للإنسان ما يُقبِل به على هذا الدين بدرجة أكبر مما لو عُرِض على أنه نظام يحقّق المصلحة للإنسان في مجموعه العام.

ولكن الإنسان الفرد بمجرّد أن يعتنق الدين الإلهي ويتغلغل في أعماقه، ويتشرّب العديد من مبادئه، يدرك أنه النظام الذي يحفظ له حقوقه كاملةً في الوقت الذي يراعي فيه حقوق الآخرين بالدرجة نفسها من الأهمية والموضوعية والموازنة.

وهي نقطة نبّه إليها السيد العلاّمة فضل الله ﵀، كما شاركه في ذلك العديد من المفكرين والعلماء المسلمين، فالتوازن في التشريع بين الحالتين الفردية والجماعية أو بين الحالتين المادية والروحية هي من السمات العامّة للتشريعات الإلهية، ذلك أن «الإسلام [نموذجاً] دعوة إلى الحياة، فيما أراده الله للإنسان من حركة ووحي ونموّ وانطلاق، من خلال مفاهيمه الواسعة الشاملة التي تفتح آفاقه على الكون كله، ليكون ساحةً لفكره، ومنطلقاً لعمله، وتجربةً لمسؤوليته، مما يجعل منه طاقة حيّة متحرّكة في أكثر من اتجاه، ومن خلال شريعته التي تنظّم له حياته فيما يأكل ويشرب ويستمتع، وفيما يعيش من علاقات، فيتحقّق له التوازن في ذلك كله، فلا تنحرف حياته إلى خطّ السلبية التي تهمل كل شيء حولها،

ولا تتطرّف في خطّ الإيجابية حتى تغلق على نفسها كل باب للحرية، وهكذا يمتدّ التوازن فيما بين النزعة المادية والنزعة الروحية، إلى الانسجام بين الشخصية الفردية والشخصية الاجتماعية، فيحسب لكل شيء حسابه، ويضع كل شيء في موضعه على أساس الحكمة والاتزان، وذلك هو معنى الحياة في حركة الشخصية؛ لأن الإخلال بالتوازن يؤدّي إلى الانحراف في اتجاه الهلاك، فيما يثيره من الارتباك في حركة المصير»[١].

مستكملاً الفكرة نفسها بقوله: «وفي حركة الرسالة في حياته، يواجه الحياة من موقع الرسالة التي تتطلّع إلى كل زاوية من زواياها، لتحرّك فيها القيم الروحية التي تبني للإنسان إنسانيته، وتحقّق للحياة معناها، فلا تتجمّد عند حدود حاجاته، بل تتحرّك إلى البعيد البعيد في نطاق القضايا الكبيرة من أهدافه .. وهكذا تكون التضحية بالحياة لوناً من ألوان حركة الحياة؛ لأن الروح تحيا في أهدافها، كما يحيا الجسد في حاجاته. وهذا ما أراد القرآن الكريم الإيحاء به عندما اعتبر: العلم والإيمان والجهاد والشهادة مظهراً من مظاهر الحياة، ولذلك كانت الاستجابة إلى الله وإلى الرسول استجابةً للجانب الحيّ من حركة الرسالة في الحياة، وهذا ما ينبغي لنا أن نستوحيه فيما نلتقي به من أحكام الشريعة وأسرارها وقضاياها، لنكتشف ـ في ذلك كله ـ كيف تستوعب الشريعة الحياة، وكيف تخضع الحياة لدعوة الشريعة فيما نريد أن تحققه من أهداف، أو تواجهه من مشاكل وحلول»[٢].

---

(١) من وحي القرآن ١٠/ ٣٥٥ ـ ٣٥٦.

(٢) م.س ١٠/ ٣٥٦ ـ ٣٥٧.

دين الله لإصلاح الإنسان لا لسيطرة القيادات

عندما تسرد الآيات القرآنية قصّة نبي الله شعيب عليه السلام، فإنها تذكر على لسانه عليه السلام قوله: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلاَّ الإِصْلاَحَ مَا اسْتَطَعْتُ﴾[١]، وَ «هذا الشعار الذي يرفعه في حركة الرسالة هو مضمون مفاهيمها وتشريعاتها، وهو الهدف الذي يسعى إليه من وراء موقفه مع الناس، فليس لديه أي هدف شخصي فيما يدعوهم إليه، ولا يريد ممارسة السيطرة عليهم ولا التحكّم بهم، بل كل ما يريده تأدية الرسالة في إصلاح الإنسان والحياة على هدي دين الله»[٢].

وانطلاقاً من هذه النقطة، يشير السيد فضل الله إلى مسألة مهمّة تتمثّل في طبيعة الدور الذي يمارسه النبي، ذلك أن الله حينما يبعثه إنما يكون بغرض تحقيق العدالة الاجتماعية بين أفراد المجتمع الواحد بكافّة أطيافه وطبقاته، وليكون النبي - أيضاً - القدوة في تطبيق أحكام الدين، ذلك أن «الآيات القرآنية قد أكّدت أن مفهوم النبوة في قاعدته الإنسانية المطلّة على الغيب من خلال الوحي النازل من الله على البشر الذين اصطفاهم لرسالته، من أجل أن تتفاعل النبوة بقيمها التي يجسدها النبي في حياة الناس، في خطّ الدعوة التي تحوّل المؤمنين إلى دعاة للرسالة، وفي خطّ الممارسة التي تثير فيهم رسالية الفكر والكلمة والحركة والمنهج، لتعيش الحياة النبوية في حركة التفاعل بين النبي وقاعدته»[٣].

---

(١) سورة هود، الآية: ٨٨.

(٢) من وحي القرآن ١٢/ ١١٩.

(٣) م. س ١٥/ ٢٢١.



والعلاقة بين القائد والأتباع في الحركة النبوية تبدأ من القيادة، وذلك من خلال عرض مبادئ وضوابط الشريعة، ولا ميزة للقائد/ النبي في هذه المسألة، ذلك أن توزيع المجتمع المؤمن إلى: قيادة وأتباع، إنما بغرض تنظيم وضبط مسألة تطبيق الأحكام الدينية الملزَم بها كِلا الطرفين.

البيعة للنبي التزام بما يمثّله في خطّ الدعوة

وفي مقابل ما نجده من حرص من قبل النبي على تبني خيارات تكون في صالح الجمهور بعامّة، نجد حالةً من الانقياد التي يلتزم فيها الجمهور باتّباع النبي تعبيراً عن الالتزام الذاتي بتعليماته والثبات معه، ليؤكّد المؤمن من خلالها أنه لا يكتفي بمجرّد الحالة الإيمانية التي يعيشها بعقله وقلبه، ولكنه يضيف إليها ميثاقاً مؤكَّداً لمواصلة مسيرة الدعوة، وعدم الانفصال عنها تحت أي ظرف من الظروف، «وفي هدي ذلك، نستطيع أن نفهم أن البيعة لا تضيف شيئاً جديداً من حيث المسؤولية، ولكنها تعمّقها في معنى الالتزام الشخصي بالرسالة والرسول»[1].

المؤمن الظاهرة أملٌ مشرق في ظلمات اليأس

ما يدفع كثيراً من الناس للإيمان بدعوات الأنبياء هو ما يجدونه من صدق هذه الدعوات، وكذلك ما يلاحظونه من إخلاص النبي في سبيل نشر الدعوة، متحدياً العقبات والعذابات الكثيرة التي تواجهه في مسيرته الشاقة هذه، وهو الأمر الذي يحرّك فيهم المشاعر الطيبة تجاه النبي

---

(١) م. س ٢١/ ١٠٤ ـ ١٠٥؛ وانظر حول الفكرة نفسها: م. س ٢٢/ ١٦٧ ـ ١٦٨.

ودعوته المحقّة التي يلتزمون غالباً الدفاع الصادق عن مبادئها وقيمها السامية.

ولكنّ هذه العاطفة الجياشة تجاه دين الله التي تتملّك العديد من أتباع الأنبياء لا تعني إلماماً كبيراً بمضمون هذه الدعوات وما تحمله من قيم ومبادئ عادلة وما تهدف إليه من تنمية اجتماعية وإنسانية، بل إن القلة القليلة مَن تتمكّن منهم هذه الدعوات فتنفذ إلى عقولهم كما تنفذ إلى قلوبهم، والقرآن الكريم يعرض لنا نموذجاً متقدِّماً من المؤمنين الذين استشعروا قيمة التضحية التي يبذلها الرسول من أجل الدعوة، وفي موازاة ذلك تنفذ إلى عقله ما تتضمنه دعوة النبي من مضامين إنسانية عالية، كان يتمنى أن يشاركه في درجة الوعي هذه بنو قومه، فالقرآن يصور لنا مؤمن آل فرعون من قوم موسى عليه السلام «بصورة الإنسان الرسالي الذي يمتلئ قلبه بالحزن على قومه، فتزحف مشاعره على كلماته لتتلمسها بحذر وهدوء.

ولعلّ قيمة هذا المؤمن الكبيرة تتمثّل في هذه الانطلاقة الإيمانية التي عاشت في نفسه فعبّأت داخله بكل معاني الحياة الكبيرة، حتى تحوّل إلى إنسان لا يكتفي بالجانب الذاتي للإيمان الذي يضمن مصيره في الآخرة من دون أن يترك أي أثر حركي في موقفه تجاه الآخرين، كما هي حال كثير من المؤمنين الذي يشعرون بأن مسؤوليتهم تجاه الإيمان عندما يقومون بما يفرض عليهم من أعمال وعبادات أو ممارسات فردية، أما هذا المؤمن فلم يكتفِ بهذا الجانب، بل اعتبر الإيمان مسؤولية المؤمن، لارتباطه بقضية الخلاص الشخصي في الدنيا والآخرة، وعلاقته بخلاص

الآخرين؛ لأن من طبيعة الإيمان أن يعيش المؤمن - في نفسه - حركة الرسالة وامتدادها في حساب المسؤولية التي تحوّل كل المؤمنين إلى رسل صغار، لتحوّل الأقوال والأفعال إلى رسالات تتحرّك في أكثر من اتجاه، لتلتقي - بعد ذلك - في نطاق الهدف الواحد الكبير، وهو سعادة الإنسان في ظلّ شريعة الله ورسالته»[١].

وقريباً من هذه الفكرة، يشير السيد فضل الله رحمه الله إلى ملاحظة مهمّة بخصوص رعاية الدين للمصلحة العامّة، وذلك أثناء دراسته للمجتمع الإسرائيلي، حيث يشير هناك إلى أن «رسالة موسى عليه السلام كانت أولى الرسالات المتحرّكة في نطاق جمهورها، الذي عملت من أجله على صعيد الرسالة وعلى صعيد الواقع، فقد كان عليه السلام يحمل قضية العقيدة في صراع الإيمان والكفر، ويحمل قضية الاضطهاد الذي يعانيه هذا الشعب من حكم فرعون، وبهذا كانت الرسالة تتحرّك في اتجاهين: في صراع الإيمان ضد الكفر، وفي صراع العدل ضد الظلم، وبهذا كان للرسالة جمهورها المتحرّك، ولكن هذا الجمهور الذي خرج من جوّ الاضطهاد إلى جوّ الحرية بفضل الرسالة والرسول لم يكن في مستوى الرسالة، ولهذا كان لا بدّ للرسالة من الاحتفاظ بجمهورها أو بمقدار منه، فتمنحه مقداراً كبيراً من الأجواء الهادئة الواسعة التي يتنفّس فيها روحَ الرسالة - حياتها وأهدافها- ويشعر بأن الأجواء الجديدة هي أجواء الرحمة والرعاية حتى مع أشدّ التحديات قساوة»[٢].

---

(١) م. س ٢٠/ ٣٤. ٣٥، مختصراً.

(٢) م. س ٢/ ٦٥، مختصراً.

ج) العلاقة مع الآخر

سبق أن ذكرنا في أكثر من موقع أن الرسالات الإلهية تهدف للمحافظة على مصالح الإنسان، ولعلّ من أهم المفردات التي تساهم في إسعاد الإنسان فرداً أو جماعة هو ما تؤسّسه الأنظمة التي يحتكم إليها وينضبط وفق ضوابطها من روح إنسانية سامية يعيش بها حالةً من الشعور بالطمأنينة والراحة النفسية تجاه نفسه وتجاه الآخرين.

ولذلك نجد أن من مبادئ الشريعة هو تنشئة المسلم على محبّة الآخرين، سواءً كانوا ممن يؤاخونه في الدين أو ممن يماثلونه في الإنسانية، وهي نقطة ركّزت عليها الرسالات الإلهية المتعاقبة فيما نقرأه حولها في آيات القرآن الكريم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ حَتَّى يَحْكُمَ اللّهُ بَيْنَنَا وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[١]، وقوله في آية ثانية: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾[٢]، وما تغرسه هاتان الآيتان وأمثالهما في الروح الإنسانية المسلمة هو تمكين روح المحبّة والتآلف بين الإنسان وأخيه الإنسان، مهما كان انتماؤهما وإلى أي عرق ومنطقة انتميا، وهي أجواء تسودها حالة متقدّمة من الشعور بالاستقرار مع ما يصاحبه من الطمأنينة والأمن الاجتماعيين، وحول هذه النقطة نقرأ تعليق السيد فضل الله على الآية الأولى منهما التي تؤكّد أهمية قبول الآخر مهما كان انتماؤه دون أي نوع من العُقَد النفسية، فيقول رحمه الله شارحاً مضمون الآية: «﴿وَإِن كَانَ طَائِفَةٌ مِّنكُمْ آمَنُواْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ وَطَائِفَةٌ لَّمْ يْؤْمِنُواْ فَاصْبِرُواْ﴾،

---

(١) سورة الأعراف، الآية: ٨٧.

(٢) سورة الحجرات، الآية: ١٠.

فلا تتعقّدوا، ولا تتحرّكوا في أجواء العداوة والبغضاء، لتخلقوا من واقع الخلاف الفكري مشكلة اجتماعية في مستوى الخصام والقتال، فذلك هو الوضع الطبيعي للحياة الإنسانية، فيما يطرح عليها من أفكار، فيختلف الناس فيها بين مؤيّد ورافض، ولا بدّ لهم من الصبر على نوازعهم الذاتية كلها، ليجعلوا من اختلافهم أساساً لإغناء الفكر وتنمية التجربة، عندما تتحوّل الخلافات إلى حركة فكرية من أجل الحوار، وإلى تحريك للخطوات المسؤولة من أجل الوحدة أو التقارب على أساس التفاهم المشترك ومن أجل المصير الواحد»(١).

وفي آية ثالثة يقول تعالى: ﴿لاَ يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾، فهؤلاء ممن لم يدخلوا مع المسلمين في حرب «إما لدخولهم معهم في ميثاق أو عهد أو أمان، وإما لوجود وضع سلمي واقعي رافض للدخول في قتال أو صِدام، ﴿وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ﴾؛ لأنهم يؤمنون بالتعايش مع الإسلام والمسلمين في محيط واحد، فلا تغريهم قوتهم بأن يشردوكم ويهددوا أمنكم في ذلك، ﴿أَن تَبَرُّوهُمْ﴾ بأن تقدموا إليهم الخير بكل مجالاته العملية على مستوى القضايا المادية والمعنوية، ﴿وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ﴾ بأن تتعاملوا معهم في خطّ العدل فيما يثور في حركة الواقع من خلافات ونزاعات فيما بينهم وبين المسلمين، حتى يكون الخير العملي والعدل الإسلامي وسيلتَيْن من وسائل الدعوة إلى الإسلام، لما يجسّدان من صورة مشرقة للإسلام لدى غير المسلمين، فتتحول الحالة السلمية في

---

(١) من وحي القرآن ١٠/ ١٨٤.

حياتهم إلى حالة روحية منفتحة على الإسلام من خلال انفتاح المسلمين عليهم بالأخلاق الكريمة»[١].

وفي تعليق ختامي على هذه الآية، يستوحي السيد فضل الله أحد أهم المبادئ الحركية في الإسلام، إذ يقول: «وقد نستطيع استيحاء هاتين الآيتين [٨ - ٩ من سورة الممتحنة] في الانفتاح على غير المسلمين بطريقة إيجابية على مستوى العلاقات الدولية، أو على صعيد العلاقات الحركية السياسية، أو في دائرة الأوضاع الاقتصادية، فإن الله لا ينهى عن البرّ بهم، والعدل معهم، وليست المسألة في إيحاءاتها الفكرية مجرّد حالة إنسانية خيرية، بل هي إلى جانب ذلك حركة عملية في هذا الاتجاه؛ لأن أجواء الآيتين - مع ملاحظة الآيات السابقة - تؤكّد في مسألة المقاطعة ورفض الموالاة على الحالة العدوانية لا على الخلاف الديني، مما يفسح المجال لعلاقات إنسانية سياسية واقتصادية إيجابية، فإن كلمة (البرّ) قد تتسع للكثير من النشاطات العامّة، كما أن كلمة (العدل) قد تتحدّث عن التوازن في المواقف والعلاقات»[٢].

التعايش مع أتباع الديانات الإلهية

كما أن القرآن الكريم يؤسّس لعلاقات إنسانية طبيعية بين المسلم وأخيه الإنسان على المستوى الإنساني العام، تقوم على مبدأ مبادلة المودّة والتراحم والعدالة، يؤسّس - في المقابل - لعلاقات إنسانية بين المسلم

---

(١) م.س ٢٢/ ١٥٦.

(٢) م.س ٢٢/ ١٥٧ - ١٥٨.



ومن يماثله في الانتماء الديني لإحدى الديانات الإلهية، حيث وردت العديد من الآيات المؤسِّسة للعلاقات الطيبة مع أهل الكتاب المبنية على أساس الأخوة في الانتماء الديني للكتب الإلهية، ذلك أن أهل الكتاب «من الفئة التي تنتمي إلى الكتب السماوية، ولا يواجهون قضية الإيمان ليتمرّدوا على المبدأ بشكل مباشر؛ لأن الكتب التي يؤمنون بها تؤكّد الإيمان بالله كحقيقة، وإن كانت تنحرف ببعض التفاصيل في تصورها لشخصية الإله وصفته، ولكن ذلك كله لا يمنع من التعايش بينهم وبين المسلمين؛ لأن هناك أكثر من قاعدة للّقاء؛ ولأن هناك كثيراً من المواقع التي يمكن أن يتحرّكوا من خلالها للحوار، من خلال ما تشتمل عليه الكتب من مفاهيم وتشريعات متحدة أو متقاربة، وما يتمثّل في شخصيات الأنبياء من روحانية وجهاد وإيمان، الأمر الذي يجعل الإنسان يشعر بالأجواء المشتركة في القيم الروحية والفكرية والتشريعية في حركة المجتمع العملية، وبذلك تلتقي الساحة المشتركة بالكثير من الإيجابيات التي لا تهزمها السلبيات الأخرى»[١].

وإلى جانب الآية السابقة، نقرأ قوله تعالى : ﴿قَاتِلُواْ الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُواْ الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[٢]، حيث تأمر هذه الآية المسلمين بأن يتعايشوا مع أهل الكتاب ما داموا ملتزمين ما عليهم من التزامات تجاه الدولة الإسلامية، وهو دفع الجزية، فيندمجون في

(١) م. س ١١/ ٧٤ ـ ٧٥.

(٢) سورة التوبة، الآية: ٢٩.

المجتمع الإسلامي دون الحاجة إلى اعتناق الإسلام، بل لهم من الحقوق ما لجميع المسلمين، من حسن المعاملة، والحماية، وإقامة العدالة فيما بينهم ما داموا خاضعين لضوابط النظام الإسلامي.

ويعاضد هاتين الآيتين أعلاه قوله تعالى: ﴿وَلاَ تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلاَّ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾[١]، حيث تؤسّس هذه الآية لحسن المعاملة والحوار مع أهل الكتاب، ذلك أن «للفكر في الإسلام قيمته، وللعقل احترامه، في مجالات العقيدة والحياة، وللآخرين حقهم في أن يسمعوا وجهة نظر الرأي المخالف، كما أن من حقنا أن نسمع منهم وجهة نظرهم، ليكون الحوار العقلاني الهادئ القائم على النظرة الموضوعية للمضمون الفكري الذي تمثّله العقيدة، فيما يسمعه أو يتحدّث به، وقد أراد الله للمسلمين أن يكون سبيلهم في صراعهم العقيدي مع أهل الكتاب، سبيل الحوار الذي يبحث في البداية عن مواطن للقاء معهم، ليبدأوا بعد ذلك الحديث في الخلافات، من هذا الموقع بروحية الوحدة، والرغبة في اللقاء على أرض مشتركة في نهاية المطاف»[٢].

في الوقت الذي تؤسس فيه الآية السابقة لمسألة الهدوء في الحوار مع أهل الكتاب، نلتقي بالآية الكريمة التالية: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٣]، وهي التي تؤكّد مبدأً إسلاميّاً مهمّاً في التعامل والحوار مع أهل الكتاب، وهي مسألة البحث

---

(١) سورة العنكبوت، الآية: ٤٦.

(٢) من وحي القرآن ١٨/ ٦٢ ـ ٦٣.

(٣) سورة آل عمران، الآية: ٦٤.

عن المشتركات، التي يُؤسَّس عليها واقع يمكن التعايش وفقه والانطلاق منه سويّاً فيما يُشترَك فيه، ذلك أنه تعالى «يدعونا إلى كلمة سواء بيننا وبينهم، فنحن نؤمن بالوحدانية كما يؤمنون، وبذلك نلتقي معاً في نطاق عبادة الله الواحد، فلا نشرك في العقيدة ولا نشرك في العبادة.

وعلى ضوء ذلك، نلتقي على عدم اتخاذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله؛ لأن ذلك يعني الشرك لله في خلقه، فلا مجال لأن نحلّل ما حرّمه الله علينا، أو نحرّم ما أحله الله لنا، إذا أمرنا هؤلاء بذلك، فإن ذلك يعني الخضوع والعبادة اللذين يؤدّيان إلى الشرك في نهاية المطاف»(١).

واستيحاءً من جوّ الآية الكريمة، يعلّق السيد فضل الله رَحِمَهُ اللهُ على ما تطرحه من مبدأ في الحوار مع أهل الكتاب بقوله: «وعلى هذا الأساس، لا بدّ للدعاة إلى الله في حركتهم نحو الهدف الكبير من الدعوة إلى الله في كل زمان ومكان، وذلك بأن يتلمسوا بأيديهم وأفكارهم المجالات المشتركة في العقيدة والأسلوب والحياة التي تربط المسلم بالآخرين وتربطهم به، ولتقرّبهم إليه، ولتوحي لهم بأن هناك مرحلة من الطريق يمكن أن تمثّل وحدة السبل في المرحلة الأولى أو الثانية، فإن ذلك كفيل بإلغاء الكثير من التعقيدات، وتجميد الكثير من الحساسيات، وتقريب الكثير من الأفكار، حتى إذا انتهى الأمر إلى نقطة الافتراق، كانت الطريق ممهّدة أمام الطرفين للوصول إليها كمقدّمة للسير عليها من موقع القناعات المشتركة التي تصنع الأرض المشتركة»(٢).

---

(١) من وحي القرآن ٦/ ٧٨.

(٢) م. س ٦/ ٨١.

المحافظة على الهوية

ثم يعقّب السيد رحمه الله على ذلك مؤكِّداً نقطة في غاية الأهمية، وهي ضرورة أن «يتحرّك العاملون في هذا الاتجاه على أساس صنع شخصيتهم الإسلامية، بحيث تلتقي المواقف لديهم من خلال الطابع الذي يميّز شخصيتهم، لا كحالة طارئة يمكن أن تأتي وتزول من دون قاعدة ثابتة، فيتحرّك المسلم في هذا الجو ويمارسه مع اختلاف الأديان الموجودة في الساحة الدينية، واختلاف المذاهب التي تعيش في الساحة الإسلامية، واختلاف المبادئ والأفكار السياسية والاجتماعية والفلسفية في الساحة الفكرية العامّة، ليصل إلى النتائج الحاسمة بأفضل طريق وأروع أسلوب»[١].

---

(١) م.ن.

الفصل الخامس

أخلاقيّات المعارضين للدعوة

بسبب مجموعة من المؤثرات الموضوعيّة تتغلّب القوى الشريرة في النفس الإنسانية على قواها الخيّرة، ما يدفع المجتمع إلى مزيد من الأزمات والتعقيدات التي تنعكس تالياً على الحياة الإنسانية الفردية والاجتماعية، وهي الحالة التي تستدعي إرسال الأنبياء مبشّرين ومنذرين بين يدي عذاب أليم، ليرفعوا عن أقوامهم الأغلال والعقد والأزمات التي يعانون منها.

ولاختيار هذا النبي أو ذاك الرسول، لا بدّ أن تتوافر فيه مجموعة من الصفات الحميدة التي يكون في مقدّمتها الإحساس العالي بالمسؤولية التي يستشعر معها النبي ما يعاني منه قومه من آلام، بحيث يجد فيما آتاه الله من رسالة المخلِّص لهؤلاء القوم مما يعانونه من غَيّ وضلال ومعاناة وعذابات في ظلّ الهيمنة الظالمة التي تتحكّم في مصائرهم وحياتهم العامّة.

لذلك فإننا عندما نستقرئ التاريخ الرسالي لأنبياء الله، نجد أن من بين أهم صفاتهم عليهم السلام رأفتهم واستشعارهم لآلام الناس، ما يعزّز لديهم المعنوية العالية بالإيمان بما يدعون الناس إليه وبعدالة القضية التي يضحّون من أجلها.

وبخلاف هذه الروحية المعنوية العالية نجد أخلاقيات معارضيهم، حيث استعرضت الآيات القرآنية جانباً كبيراً من هذه الأخلاقيات، نعرض هنا

لبعضٍ منها، وفق الرؤية التي تناولها بها العلاّمة السيد محمد حسين فضل الله رحمه الله، وذلك في عناوين ثلاثة، هي كالتالي:

أ) تكذيب الرسل ظاهرة تاريخية

عندما يعيش المجتمع حالةً من الاضطراب الاجتماعي ومن عدم الاستقرار بسبب شيوع ظاهرة الطبقية الاجتماعية بين مستكبرين ومستضعفين، لا بدّ أن يظهر من بينهم من يدعو إلى إصلاح ما يعانيه هذا المجتمع من خلل في الأوضاع العامّة من الناس، وهي دعوة ليس بالضرورة أن تلقى آذاناً مصغيةً من الجميع، بل لعلها تلقى معارضةً حتى من الطبقة المستضعفة، وبخاصّة عندما تحمل الدعوة في طياتها تغييراً جذريّاً عمّا هو قائم من أعراف وتقاليد وعادات، حيث يصعب على الإنسان التخلّي السريع عمّا كان يؤمن به سابقاً، ليؤمن بمعتقدات وأفكار جديدة، ربما لا تنسجم مع ما لديه من رواسب فكرية موروثة.

ولذلك قد لا يُستغرَب وجود معارضات لما يقوم به الأنبياء من وظيفة الدعوة إلى الدين الجديد، ذلك أن هذا ـ في المجمل ـ سيدعو إلى تغيير جذري في نمط تعاطي أبناء ذلك المجتمع مع كافة الشؤون الحياتية، بما فيها الجوانب الفكرية والعقائدية، وهي مسائل ليس من المتوقّع أن يتلقّاها الجمهور بالقبول بصورة سريعة أو دون نقاش ومخاض فكري طويل.

ولنتصوّر ـ هنا ـ مقدار الجهد وقدرة التحمّل التي يمتلكها الأنبياء في سبيل نشر الرسالة الإلهية، وهذا في حال لم تكن هناك أي عقبات تتخذها السلطات الحاكمة، ذلك أن الدين الجديد غالباً ما يكون مهدِّداً لنظام الحكم



القائم آنذاك، ما يدفع الحاكم إلى اتخاذ كافة الأساليب التي يجد فيها ما يحافظ على نظامه وحكمه.

ولذلك نقرأ ـ فيما نقرأ من آيات قرآنية ـ قوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾[1]، حيث نجد أن هذه الآيات تتحدّث عن «المسيرة الطويلة للنبوات قديماً، التي استخدمت في انطلاقتها الحكمة والموعظة الحسنة والجدال بالتي هي أحسن، وبالكلمة الطيبة التي تفتح عقول الناس وقلوبهم على الحقّ، فواجه المجتمع ذلك بالرفض والتعسّف، أو اللامبالاة والاستهزاء، ولكن الأنبياء لم يتراجعوا ولم يسقطوا، بل أكملوا المسيرة حتى أتاهم أمر الله.

وهي قصة الدعوة إلى الله في كل زمان ومكان، التي تصدم تخلّف المجتمع، بما يحمله من أفكار، أو ما يعيشه من أوضاع، أو يلتزمه من مواقف، مما يجعل الناس يخافون فكرة جديدة تسعى إلى التغيير؛ لأنهم لا يريدون الخروج من أجواء التخلّف التي أَلِفوها حتى تحولت إلى جزء من تكوينهم الشخصي، ولهذا فهم يهربون من الأنبياء والمصلحين بكل الوسائل، بالامتناع عن الاستماع إلى كلامهم، أو الرفض للحوار معهم، أو العمل على اضطهادهم، أو السخرية منهم، أو إخراجهم من بينهم؛ لأنهم يرون فيهم التحدّي لواقعهم، والهزيمة لمفاهيمهم أو لعاداتهم وتقاليدهم الموروثة من الآباء والأجداد»[2].

---

(١) سورة الحج، الآيات: ٤٢ – ٤٤.

(٢) من وحي القرآن ١٦/ ٨٨ ـ ٨٩.

ولذلك ينال الأنبياء عليهم السلام ذلك التقدير الكبير، فالمسؤولية التي يتحملونها ويقومون بواجباتها خير قيام لا يتحملها إلا الأوحد من الناس، ومع ذلك يبقى نظرهم للمستقبل، إذ يعقدون الآمال على الأجيال اللاحقة التي قد تعي ما ينادون ويبشرون به من فكر ونظام، يقول السيد فضل الله رحمه الله حول هذه الفكرة: «وقد يموت الأنبياء والمصلحون بعد ذلك، ولكن الرسالات تبقى وتنفُذُ إلى الأعماق بطريقة خفية، من حيث لا يشعر الناس؛ لأن الرفض للفكرة يختزن ـ غالباً ـ وعياً عميقاً لمفرداتها يؤمّن التفاعل معها بهدوء، لتتحوّل إلى قناعات فكرية بعد ذلك، وهذا ما يمنع الدعاة إلى الله من اليأس عندما يواجهون الرفض في الطريق؛ لأنهم يرصدون أملاً جديداً للدعوة في المستقبل عندما تسقط الأغشية عن عيون الرافضين تحت تأثير ما ينفذ من مفردات الدعوة إلى منطقة اللاشعور فيهم»[(١)].

واستفادةً من الآية الكريمة: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ﴾[(٢)]، يشير السيد العلاّمة إلى أن «هذا الأسلوب [التكذيب] الذي مارسه المشركون من قريش ومن غيرها في اتهام الرسول بالسحر أو الجنون لم يكن أسلوباً جديداً، بل هو استمرار للأساليب السابقة التي استُعملت في مواجهة الأنبياء من قبله، فليست هناك خصوصية لهؤلاء، بل المسألة مسألة الكفر الذي يفقد الحجّة في مضمونه الفكري، كما يفقد الردّ على مضمون الرسالة وموقف الحقّ في شخصية الرسول، فيعمد أهله إلى توزيع الاتهامات بطريقة غير مسؤولة»[(٣)].

---

(١) م. س ١٦/ ٨٩؛ واقرأ حول الفكرة نفسها: م. س ١٨/ ٣٣.

(٢) سورة الذاريات، الآية: ٥٢.

(٣) من وحي القرآن ٢١/ ٢٢٠ ـ ٢٢١.

ب) لا يملكون المنطق السليم في مواجهة الدعوة

مما نؤمن به في عقيدتنا الإسلامية أن الله سبحانه حكيم في جميع ما يتدبّر به شؤون الكون وما يحيط بنا من عوالم، ومن حكمته أنه يختار الزمان والمكان المناسبين اللذين يختار فيهما نبيّاً يبعثه إلى أحد الأقوام بدين جديد، يحيي به ما اندثر من كوامن الخير في فطرة الإنسان، فظهرت نوازع الشرّ وطغت، إلى أن عمّ الفساد والظلم على البسيطة.

وبسبب طغيان النوزاع المخالفة لما فطر الله الناس عليه من حبٍّ للخير فيما بينهم، غالباً ما تكون الدعوات النبوية مثاراً للغرابة والاستنكار؛ لأنها في معظم أحكامها ومبادئها مخالفة لما عليه تلك المجتمعات، ولذلك تُواجَه بالرفض والإعراض، ويكون منطقهم في هذا الرفض: أنها مخالفة لما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم وما هم عليه من أعراف وتقاليد في مجتمعهم، ولذلك نقرأ في القرآن الكريم ما يصوّر لنا الشخصية الرافضة لمبادئ الدعوة بأنها شخصية تشبه في ترديدها لأفكار السلف السابقين مَن ينعق بما لا يعيه، يقول تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[1]، حيث تهدف هذه الآية إلى بيان «الصورة الداخلية الحقيقية للكافر في مواجهته للفكر الذي يقدّم إليه، وللإيمان الذي يُدعَى إليه، فهو لا يحمل في نفسه مسؤولية الفكر والإيمان ليفكّر ويناقش ويدير الحوار الذي يرتكز على أن يسمع وجهة نظر الآخرين، ويفهم طبيعتها وخصائصها وتفاصيلها، ثمّ يفكر فيها من حيث هي خطأ أو صواب، ...

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٧١.

وتزيد الآيةُ الصورةَ وضوحاً في طبيعة الحالة العامّة التي تمنعهم عن مواجهة الإيمان بالجدّ والإيجابية، فقد عطّلوا أسماعهم وأغلقوها عن آيات الله، فَمَثَلُهم كَمَثَلِ الذين لا يملكون قوّة السمع، وقد عطّلوا ألسنتهم عن الجواب، فيما يوجه إليهم من كلمات الله بما يُحتَج عليهم به أو يسألهم عنه، فكأنهم لا ينطقون، وقد أغمضوا عيونهم عن النظر إلى آيات الله في خلقه بما تجسّده من مواطن العظمة، فكأنهم لا يبصرون، ومن خلال ذلك كله، عطّلوا عقولهم عن التفكير بما جمّدوه من أدوات الفكر المسموعة والمنظورة والمنطوقة، فكأنهم لا يعقلون»[١].

وفي تعليق ختامي حول الآية، يرى السيد فضل الله أن «المشكلة في هؤلاء [المشركين] أنهم لا يملكون حركةً للعقل في وجدانهم حتى يميزوا به الخطّ المستقيم من الخطّ المنحرف، ولا يفرّقون بين الجهة التي لا تعقل شيئاً ولا تهتدي طريقاً، وبين الجهة التي تملك العقل والوعي والهدى، فيتبّعون تلك ويتركون هذه.

ومن هنا، فإن فقدانهم حيوية العقل وجرأته، جعلهم يقلّدون من لا عقل له في حقائق الأشياء. ومن جهة أخرى، فهي تدلّ على أن العقل هو الأساس في حركة المعرفة الصحيحة ووعي المسؤولية، فمن لا يعتمد العقل وسيلته إلى المعرفة في مسؤولياته الفكرية، فلن يصل إلى الحقيقة في عمقها الإيماني»[٢].

(١) من وحي القرآن ٣/ ١٨٢.
(٢) م. س ٣/ ١٨٤.

ولتحديد المشكلة الأساس في عدم إيمان هؤلاء بدعوات الأنبياء، يحدّد السيد فضل الله السبب في ذلك بأنها «الغفلة المتعمّدة التي يرفض فيها الإنسان أن يفكّر ويحاور، أو يتراجع أمام الحجّة القويّة التي يثيرها الآخرون ضد فكره، فينغلق على الذات، ويبتعد عن الواقع الحاضر والمستقبلي نتيجة ما تتمخّض عنه المواقف السلبية من نتائج خطيرة على مصيره»(١).

ولأن هؤلاء المنكرين لا يملكون منطقاً سليماً تجاه منطق الدعوة، يلجأون إلى محاربتها بالوسائل غير المشروعة، فيطلقون على أنبياء الله تهماً وصفات ينالون فيها من شخصياتهم ومكانتهم - وفي بعض صورها من كرامتهم - وما يجعل خططهم تبوء بالفشل أن الأنبياء يواجهون هذه الاتهامات وتشويه الصور والحقائق برجاحة في الموقف، وهدوء في الأسلوب؛ لأن الأنبياء لا ينطلقون في مواجهة المعاندين من موقع ذاتي، بل يعُدُّون أنفسهم «مجرّد رسل يبلّغون الناس ما يأمرهم الله به، فإذا واجههم الناس بالتمرّد والتحدّي فإنهم يرفعون الأمر إلى الله؛ لأنه موجَّه إليه قبل أن يكون موجَّهاً إليهم»(٢).

ومثالاً على هذه المواجهة بين المنطقين، نقف مع الآيات الكريمة التي تحدّثنا عن محاورة النبي هود عليه السلام مع قومه، حيث يقول تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُواْ اللهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلاَ تَتَّقُونَ * قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وِإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ * قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ

(١) م.س ١٥/ ١٨٥.
(٢) م.س ١٢/ ٥٩-٦٠.

* أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَاذكُرُواْ إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاء مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً فَاذْكُرُواْ آلاء اللّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾(١)، حيث نجد خطاب العقل الهادئ النبوي في مقابل الانفعال الطائش من قومه، إذ يدّعون أنّ نبي الله هود عليه السلام «لا يتكلّم كلام الراشدين الذين يَزِنُون كلامهم بميزان العقل، فيواجه عقيدة الناس التي درج عليها الآباء، ويتمرّد على تقاليدهم، ويثير الجوّ الهادئ بأفكار غريبة تحوّل الهدوء إلى عنف، ويصيب العلاقات الوثيقة بالتصدّع والتمزّق، وذلك ما توحي به كلمة (السفاهة) عندما يرمي بها إنسانٌ إنساناً»(٢).

وفي مقابل هذا الاتهام يردّ عليهم نبي الله هود عليه السلام بكل هدوء، فيقول لهم: ﴿يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي سَفَاهَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ * أُبَلِّغُكُمْ رِسَالاتِ رَبِّي وَأَنَاْ لَكُمْ نَاصِحٌ أَمِينٌ ﴾، «وذلك هو دور الرسول في رسالته، أن يكون ناصحاً لأمته في حاضرها ومستقبلها، أميناً على الحقيقة التي تفتح قلوب الناس على الله، وعلى الحياة الكريمة من خلاله، وعلى الرسالة التي يحملها بصدق، ويبلّغها بوعي وإيمان وقوة، وذلك هو دور كل داعية إلى الله في حركته الرسالية في حياة الناس، أن يعيش معهم بروحية الإنسان الذي ينصح لله في خلقه، ويكون أميناً على كل أوضاعهم العامة والخاصّة على كل صعيد، وأن يجسّد ذلك كله في أقوالهم وأفعالهم»(٣).

(١) سورة الأعراف، الآيات: ٦٥ — ٦٩.

(٢) من وحي القرآن ١٠/ ١٦٤.

(٣) م. س ١٠/ ١٦٥ ـ ١٦٦.

جـ) يتوسلون بالوسائل غير المشروعة لمواجهة الدعوة

ما تدعو إليه الرسالات الإلهية ينسجم وما تنادي به الفطرة الإنسانية السليمة، لذلك تنجذب الجماهير إلى نداءات ومبادئ هذه الرسالات، ولذلك لا يملك المعارضون منطقاً عقلائيّاً سليماً يواجهون به حجج الأنبياء وأدلتهم سوى ما يلجأون إليه من أساليب البطش والضغط وتشويه الحقائق ومحاصرة الدعاة، وغيرها من الأساليب التسلطية المقيتة.

وتمثيلاً لبعض هذه الأساليب، نقف مع نموذجين تعرضهما الآيات القرآنية الشريفة، هما:

أ) تشويه الحقيقة

مما تستعرضه الآيات القرآنية من قصص نبوي، قصّة النبي موسى وأخيه هارون عليهما السلام عندما ذهبا إلى فرعون يدعوانه إلى الإيمان بالله سبحانه وتعالى ربّاً معبوداً دون سواه، وكان مما طلبه موسى عليه السلام أن يرسل فرعون معهما بني إسرائيل، فأجابه فرعون بقوله: ﴿قَالَ أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيداً وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ * وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ * قَالَ فَعَلْتُهَا إِذاً وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ * فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْماً وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ * وَتِلْكَ نِعْمَةٌ تَمُنُّهَا عَلَيَّ أَنْ عَبَّدتَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾[1]، إذ يحاول فرعون أن يخدع الجمهور بأنه صاحب فضل على بني إسرائيل، وفي مقدَّمهم النبي موسى عليه السلام، الذي تربى صغيراً في كنفه، وأن موسى الذي يطلب منه إرسال بني إسرائيل لينقذهم منه مطالَب بدم لأحد الأقباط الذي قتله، وهنا يفضحه

---

(١) سورة الشعراء، الآيات: ١٨ – ٢٢.

نبي الله موسى عليه السلام ويذكّره بأنه يشوّه الحقائق فيما يذكّره من مِنن يمنّها عليه، فهل يمنّ على بني إسرائيل بأن جعلهم عبيداً له، سلبهم - بذلك - جميع حقوقهم بشراً لهم من الحقوق ما لغيرهم، فيما يستفيد هو منهم في «سبيل تثبيت ملكه وتقوية سلطانه، ويقهر بها إنسانيتهم بمصادرة حريتهم، ليتحوّلوا إلى أدوات مقهورة لتلبية رغباته وتحقيق مراده، فيما يحبه وما لا يحبه، ...

وهذه الكلمة القوية الحاسمة المتحدية من النبي موسى عليه السلام كانت ردّاً على الروح المتعالية التي يحملها الطغاة في نظرتهم إلى ما يقدّمونه لشعوبهم من موارد استهلاكية، وحاجات معيشية في دائرة الحصار الذي يطبق على حريتهم فيما يريدونه للشعوب أن تتحوّل إلى أدوات صمّاء عمياء لأطماعهم وأغراضهم، وللوصول إلى غاياتهم الظالمة، وهنا تأتي الكلمة الرسالية لتقول لهؤلاء: إن مسألة الحرية هي أغلى من كل المتع والمنافع التي يقدّمها السادة للعبيد؛ لأن الحرية تعني الارتفاع بالإنسانية إلى المستوى الأعلى في رحاب الحياة، بينما العبودية تعني الانحطاط بإنسانية الإنسان إلى أسفل دركات الحياة»[1].

ب) الاستكبار وما يفرزه من بطش وظلم

في دعوة نبينا الأكرم محمد صلى الله عليه وآله وسلم المكّية آمن بعضٌ من صبية قريش وعبيدهم في بداية سنوات الدعوة، وقد أخذت دائرة المؤمنين بالدعوة تزداد يوماً بعد يوم، إلى أن شعر القرشيون بالتهديد الفعلي لهم، فما وجدوا بدّاً

---

(١) من وحي القرآن ١٧/ ١٠٠ ـ ١٠١.

من اللجوء إلى أساليب البطش والتعذيب، بعد أن يئسوا من أساليب التشويه والضغوط المتعدّدة، والإغراءات التي قدموها للنبي محمد ﷺ، وهو الأمر الذي دفع بالمسلمين إلى الهجرة من مكّة إلى الحبشة في بادئ الأمر، ومن ثَمَّ إلى يثرب.

وردّاً على تهديدات واعتداءات القرشيين التي لم يأمن منها المسلمون حتى وهم في المدينة المنورة، أمر الله نبيّه الكريم بقتالهم ما داموا في حالة حرب معه، فقال تعالى: ﴿وَقَاتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلاَ تَعْتَدُواْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبِّ الْمُعْتَدِينَ﴾[(١)]، فـ «في هذه الآيات [١٩٠ ـ ١٩٣ من سورة البقرة] يضع القرآن الخطوات الأولى لتشريع القتال في الإسلام، ويثير أمامنا الفكرة التي يستند عليها هذا التشريع في بداياته، فقد كانت قريش هي البادئة بالقتال والعدوان على المسلمين، فليس من الطبيعي أن يقفوا مكتوفي الأيدي أمامها، ينادون بالسلام والمحبة والعفو والمغفرة؛ لأن مثل هذه المفاهيم الروحية الأخلاقية لا يفهمها المعتدون الذين يحرّكون سيوفهم في هوى أطماعهم وشهوات وظلمات أنفسهم، فلا بدّ من الحديث معهم باللغة التي يفهمونها جيداً، من موقع الجوّ الذي يعيشونه في اعتبار القوّة أساساً للحقّ وللسيطرة، وكان الإسلام واقعيّاً في نظرته إلى طبيعة الموقف، فأُذِنَ للمسلمين في القتال في سبيل الله لمن يقاتلهم»[(٢)].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ١٩٠.

(٢) من وحي القرآن ٤/ ٧٥.

الخاتمة

معالم المنهج





التجديد سِمة كل علم وفنّ، ولكنّ وتيرته تختلف من علم لآخر، ذلك أن العلوم الدينية ـ بسبب ارتباطها بالدين وما يتعلّق بذلك من عنصر القداسة والمحافظة على القديم ـ تكون وتيرة التجديد فيها بطيئة جدّاً بالمقارنة مع بقية العلوم الأخرى.

ومن هذه العلوم التي ظهرت الدعوات إلى تجديدها ـ سواءً في المادّة أم في المنهج ـ التجديد في علم الكلام فاعتمدنا لها نموذجاً عملياً في البحث الكلامي عند السيد فضل الله حول ظاهرة النبوة، الذي اعتمد بالدرجة الأولى في بيان هذه الظاهرة ورفع الملابسات حولها وتقديم الرؤية الإسلامية حولها على الآيات القرآنية، مقدِّماً بذلك منهجاً جديداً في معالجة المسائل الكلامية وفق الرؤية القرآنية، في خطاب اتسم بالابتعاد عن النخبوية المغرقة في العقليات التي تذهب بالظاهرة الدينية من جوّها الأخلاقي الوجداني إلى أجواء أكثر علمية وعقلانية تُفقدها الكثير من روحيّتها.

وقد انطلق السيد فضل الله في دراسته للتاريخ الرسالي من خلفية نظرية، تقوم على حضارية استعادة التاريخ وقراءته من جديد، ذلك أنه يؤمن بأن التاريخ يجب أن يكون المصدر الرئيس للفكر الواعي والمغذّي للحركة الإسلامية المعاصرة، مشدِّداً ـ لتحقيق ذلك ـ على أن يكون تركيزنا في دراسة هذا التاريخ على الرسالة وما تحمله من فكر، أكثر من تركيزنا

على الذات النبوية حاملة الرسالة، داعياً في ذلك إلى دراسة هذه التجربة لاستيضاح ما يفصل بين النظرية والتطبيق، مقدِّماً العديد من المقترحات حول المنهجية المفترضة لدراسة التاريخ الرسالي، وذلك انطلاقاً من تجربته الطويلة في التأسيس للحركية الإسلامية في واقعنا المعاصر.

أبرز معالم المنهج في دراسة التاريخ الرسالي

بعد الحديث عن ظاهرة النبوة في الدرس الكلامي والمنهجية المقترحة في دراسة عناوين هذه الظاهرة بشكل عام، عالجت فصول الدراسة منهجية السيد فضل الله في دراسته للتاريخ الرسالي، حيث كان العنوان الأبرز فيها: إعلاء القيمة في مقابل نبذ الخرافة فيما يرتبط بهذا التاريخ، وذلك وفق ضوابط وجدنا أن من أبرز معالمها العناوين التالية:

أ) التاريخ الرسالي مصدر لحركة الوعي

دراسة أي تاريخ تمثّل مصدراً مهمّاً من مصادر وعي الإنسان لمجريات الأحداث، فالحاضر امتداد للماضي، سواءً على الصعيد الاجتماعي البحت أو الفكري، وهي النقطة التي دعا إليها السيد فضل الله، ففي الوقت الذي يدعو فيه لاستحضار التاريخ من خلال العديد من الدراسات لما في ذلك من مظهرية حضارية وفاعلية تعيشها المجتمعات، نراه ـ من ناحية أخرى ـ ينادي بأن تؤسِّس هذه الدراسات إلى نوعٍ من حركة للوعي، لا أن يكون استحضارنا للتاريخ الرسالي سرداً لمجموعة من المعجزات والغيبيات والكرامات، ذلك أن المجتمع المتديّن بحاجة أن يعيش إعلاء القيمة على حساب الخرافة، استنهاضاً لما فيه من القوى الكامنة غير المستثمرة، حيث

يمثّل هذا التاريخ منبعاً محفّزاً لتنظيم هذه القوى للصعود بمجتمعاتنا نحو فضاءات أرحب وأوسع، ونحو مزيد من ترسيخ القيم الإنسانية النبيلة.

ب) الواقعية في دراسة التاريخ الرسالي

انطلاقاً من النقطة السابقة أعلاه، يحاول السيد فضل الله أن يقدّم التاريخ الرسالي بواقعية غير مصطنعة أو متكلّفة، ففي أثناء حديثه عن دور الدين في نشأة الحروب الدينية، نجده في الوقت الذي ينفي أي علاقة مباشرة بين تعدّد الرسالات الإلهية وبين ما يحدث من حدّة في الصراع والخلاف بين أتباعها لدرجة تصل إلى مرحلة الاحتراب بينهم، في الوقت ذاته لا ينفي عن الحالة الدينيةوجود بعض العصبيات داخلها، إذ استبعد رحمه الله ـ هناك ـ حصر المشكلة في صحّة فكر أو فساد معتنقي الديانات الإلهية، ما يترتّب على إطلاق الحكم بصواب أو خطأ مفردات الشريعة نفسها، بل أكّد أن جذر المشكلة يكمن في الخلل النفسي الذي أنشب بأظفاره في نفوسهم، ليتّخذوا أسلوب المقت والشنآن بديلاً عن الحوار الفكري، الأمر الذي يؤول ـ في النهاية ـ إلى حروب طاحنة.

وفي دراسته للشخصية النبوية، يقدّمها على أنها حالة بشرية يتميّز النبي فيها عن بقية بني نوعه بحالة الوحي الإلهي الذي يتنزّل عليه، وما يرافق هذه الظاهرة من معاجز وإنباء عن بعض المغيبات واتصال مباشر مع الذات الإلهية، إنما هي من مقتضيات مسيرة الدعوة. وفيما يرتبط بصفة العصمة، يشير إلى أنها ثبات في الإنسان على ما وهبه الله له من فطرة سليمة لم تتلوّث ـ في الشخصية النبوية ـ بما يحيط بها من سلوكيات منحرفة طوال المسيرة الإنسانية لهذا النبي أو ذاك المعصوم.

ج) تقديم الرسالة على الرسول

إيماناً منه بأهمية الفكر الذي تقدّمه حركة الدعوة النبوية، وبسبب ما تراكم من تراث كبير عن الذات النبوية، كان من أهم معالم منهجية السيد فضل الله دعوته إلى تسليط الضوء أكثر على الرسالة بما تحمله من مضامين قانونية وتشريعية وأخلاقية ترتفع بالمجتمع الإنساني إلى السموّ والرقي المعنوي والمادي في علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، دون أن تكون الرسالة مجرّد حدث من أحداث السيرة الذاتية لذلك النبي أو هذا الإمام، وقد ركّز على هذه النقطة لما وجد فيها من سلبيات واضحة على المنهجية المتّبعة في دراسة سِيَر الأنبياء والمعصومين، تنقل القداسة من الرسالة إلى الرسول، بحيث تتركّز العلاقة بين الأنبياء وأتباع الرسالة على أساس شخصي، ما يؤسّس إلى خلاف حاد - في بعض صوره - حول أفضلية بعض الأنبياء على بعض أو بعض الأئمة على أحد الأنبياء أو على مجموعة منهم، وهو خلاف المنهج القرآني الذي كان يتحدّث عن الرسول من خلال الرسالة، وليس انطلاقاً من الحالة الشخصية للنبي.

د) استنطاق التاريخ بما يخدم العمل الإسلامي المعاصر

يُعَدُّ السيد فضل الله أحد أهم رموز الإصلاح والنهضة الإسلامية في عصرنا الحاضر، وذلك انطلاقاً من دوره الفكري الذي استطاع به أن يقارب العديد من المفاهيم الحديثة بما يتوافق منها والنظرة الإسلامية، وقد كانت تجربته في دراسة حركة الدعوة عند الأنبياء إحدى أهم المحاور التي استطاع بها أن يستنطق التراث الإسلامي والديني عموماً فيما يخدم واقع

الحركة الإسلامية الحديثة، ولذلك فإن من أهم معالم منهجيته في دراسة هذه الظاهرة هو استحضار وقائعها بما يخدم الواقع المعاصر، وهي نقطة نقف فيها مع عدة نماذج مررنا بها أثناء هذه الدراسة، وبخاصّة ما نراه في فوائده التي يختتم بها شرحه لمقاطع الآيات القرآنية في تفسيره (من وحي القرآن)، وما تحتويه هذه الفوائد من توجيهات، تتعلق في كثير من الأحيان بمسألة علاقة الإسلام بالآخر.

هـ) الانطلاق من الواقعة إلى آفاق أرحب

لعل من الواضح أن دراسة التاريخ الرسالي لا تكون في هدفيتها من أجل الاطلاع الموسّع على ذلك التاريخ، بقدر ما هي محاولة لاستحضار ما تقدّمه تلك الوقائع من معالجات نستطيع أن نستثمرها في واقعنا المعاصر، ولكن هذا الاستحضار لا يمكن أن يتمّ بالمفردات والمعالجات نفسها، ذلك أن الدراسة المثمرة هي التي يستطيع فيها الدارس من الانطلاق من أفق الواقعة الضيق إلى آفاق أكثر رحابة و سَعة.

وأثناء مطالعتنا فصول هذه الدراسة لا نعدم أن نجد العديد من الأمثلة التي انطلق فيها السيد فضل الله إلى آفاق رحبة في تعاطيه مع بعض الوقائع المرتبطة بالتاريخ الرسالي، فأثناء حديثه عن بناء النبي إبراهيم عليه السلام وابنه النبي إسماعيل عليه السلام للكعبة، وما يرويه لنا القرآن من أدعية وأجواء روحية رافقت هذا العمل العبادي، نراه ينطلق من هذه الواقعة إلى أهمية وجود مثل هذه الأجواء في أعمالنا الاجتماعية، وبأن البناء الروحي للإنسان هو من أهم أهداف الرسالات الإلهية.

كما نراه يستفيد من سؤال النبي إبراهيم عليه السلام عن مستقبل ذريته فيما يرتبط بدورهم في التبشير بالرسالات الإلهية، أهمية التخطيط المستقبلي للفرد والمجتمع فيما يخصّ تمسّك الأجيال القادمة بمبادئ وقيم الدين.

و) الأصالة في التأسيس للحركة الإسلامية المعاصرة

انطلاقاً من النقطة أعلاه، نجد أن السيد فضل الله استفاد من دراسته لهذه الحركة الرسالية في التأسيس للحركة الإسلامية المعاصرة فكريّاً وعمليّاً، مؤصِّلاً ومقارباً للكثير من مفرداتها الحديثة مع الموروث الإسلامي، وداعياً إلى المحافظة على الهوية الإسلامية، ذلك أنه في الوقت الذي يدعو فيه إلى الحوار والانفتاح على الآخر، يحرص على المحافظة على الهوية الإسلامية، إذ نراه يقول: «ولعلَّ من الضروري أن يتحرّك العاملون في هذا الاتجاه على أساس صنع شخصيتهم الإسلامية، بحيث تلتقي المواقف لديهم من خلال الطابع الذي يميّز شخصيتهم، لا كحالة طارئة يمكن أن تأتي وتزول من دون قاعدة ثابتة، فيتحرّك المسلم في هذا الجو ويمارسه مع اختلاف الأديان الموجودة في الساحة الدينية، واختلاف المذاهب التي تعيش في الساحة الإسلامية، واختلاف المبادئ والأفكار السياسية والاجتماعية والفلسفية في الساحة الفكرية العامّة، ليصل إلى النتائج الحاسمة بأفضل طريق وأروع أسلوب»[1].

ز) توضيح العلاقة بين العقل والإيمان

في الوقت الذي نجد من يدعو إلى تقدير قيمة العقل الإنساني، بحيث يتحرّر مثل هؤلاء الدعاة من أي قيود تحدّ من انطلاقة القدرة العقلية

(١) من وحي القرآن ٦/ ٨١.

الإنسانية بما فيها القيود الدينية والاجتماعية، نجد من يقابلهم في الدعوة إلى أهمية احترام الضوابط الشرعية التي أنزلها الله لصالح الإنسان إلى حدٍّ يلغي فيه هؤلاء أي دور أو قيمة للعقل، وبين هؤلاء وهؤلاء يقدّم السيد فضل الله ـ وبجانبه مجموعة من المفكرين المسلمين ـ طرحاً متوازناً، يعُدُّ فيه الدين دعوة للنظر مجدَّداً إلى كل ما يعتنقه الإنسان من ثقافة، سواءً الثقافة الموروثة أو ما يحيط به من مؤثرات اجتماعية وثقافية، استشهاداً بالآية الكريمة: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لله مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ﴾[1]، التي تدعو الإنسان إلى التأمّل الذاتي الذي ينطلق في الفكرة والإيمان بها من وحي إيمانه واعتقاده الشخصي دون أي نوع من التأثّر بالآخرين، وتطبيقاً لذلك نجده يحرص دائماً على أن يكون هذا التاريخ الرسالي ترسيخاً للقيمة ونبذاً للعديد من الخرافات التي شوّهت الكثير من أحداثه المشرقة.

ح) بيان العلاقة بين القيادة والقاعدة المؤمنة

أثناء الحديث عن طبيعة العلاقة بين النبي ورسالته المؤتمن على تبليغها أشرنا هناك إلى أنه في الوقت الذي يعدّ تبليغها تكليفاً يشعر النبي بثقله في حال لم تظهر بعدُ ثمار جهوده في نشر الدعوة، فإنه يواصل هذه الجهود بكل محبّة وادعة رحيمة، وهي الروحية التي تلقي بظلالها على طبيعة العلاقة المتبادلة بين (النبي/ القيادة) و(الأتباع/ الجمهور) الذين يبادلونه المحبّة والإخلاص والتضحية ذاتها، ذلك أن من أهم عوامل نجاح الدعوة

(١) سورة سبأ، الآية: ٤٦.

هو إخلاص الجمهور لقيم ومبادئ الرسالة والاتّباع الواعي لتعليمات قيادتهم النبوية. ولبيان أثر هذا النوع من التفاعل المتبادل نقف مع نموذج من أفراد القاعدة المؤمنة، وهو نموذج مؤمن آل فرعون الذي تغلغلت في نفسه الدعوة الإلهية بما تحمل من مضامين جعلته يشارك النبي الآلام والآمال ذاتها.

المصادر

١. القرآن الكريم.

٢. **الكتاب المقدّس**، الترجمة العربية المشتركة من اللغات الأصلية مع الكتب اليونانية من الترجمة السبعينية، دار الكتاب المقدس في الشرق الأوسط ـ بيروت، ط٣٠، ١٩٩٣م.

٣. **أصول البحث**، الدكتور عبد الهادي الفضلي، الجامعة العالمية للعلوم الإسلامية ـ لندن، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

٤. **خطوات على طريق الإسلام**، السيد محمد حسين فضل الله، دار التعارف ـ بيروت، ط٤، ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م.

٥. **علي ميزان الحق**، السيد محمد حسين فضل الله، دار الملاك ـ بيروت، ط٢، ١٤٢٣هـ ـ ٢٠٠٣م.

٦. **في رحاب أهل البيت** عليهم السلام، السيد محمد حسين فضل الله، إعداد: سليم الحسني، دار الملاك ـ بيروت، ط٤، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٥م.



٧. **محمد حسين فضل الله .. العقلانية والحوار من أجل التغيير والنهضة**، مجموعة من المؤلّفين، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي – بيروت، ط١، ٢٠١٠م.

٨. **مسيرة قائد شيعي** .. السيد محمد حسين فضل الله، جمال سنكري، ترجمة: آصف ناصر، دار الساقي – بيروت، ط١، ٢٠٠٨م.

٩. **مطارحات في قضايا قرآنية** .. دراسة في تفسير من وحي القرآن لآية الله العظمى السيد محمد حسين فضل الله في سياق مناهج التفسير السائدة، محمد الحسيني، دار الملاك. بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ – ٢٠٠٠م.

١٠. **من وحي القرآن**، السيد محمد حسين فضل الله، دار الملاك. بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.

١١. **نظرة إسلامية حول عاشوراء**، السيد محمد حسين فضل الله، دار الملاك. بيروت، ط١، ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م.



الفهرس



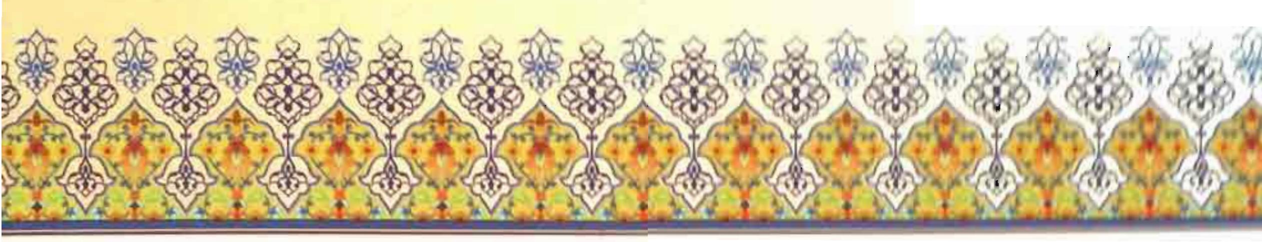
الفصل الثاني

الفصل الثالث

الفصل الرابع

الفصل الخامس

الخاتمة



المؤلف: حسين منصور محمد الشيخ

مواليد ١٩٧٦ القطيف - السعودية.

الإنجازات والأعمال

- مؤلفات الإعراب المحلي للمفردات النحوية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، ط١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
- الجملة العربية: دراسة في مفهومها وتقسيماتها النحوية، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، ط١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م.
- الشيخ عبد الهادي الفضلي وتجديد مناهج التعليم الديني، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي - بيروت، ط١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- الدكتور الفضلي يفتح أوراقه للحوار، دار مداد للثقافة والإعلام - المنامة، ط١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- الدكتور عبد الهادي الفضلي .. تأريخ ووثائق، دار مداد - المنامة ودار الصفوة - بيروت، ط١، ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.
- المسيرة الفكرية: قراءة في مؤلفات الشيخ حسن الصفار، دار أطياف - القطيف، ط١، ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

الأنشطة والمشاركات

- عضو مؤسّس لمركز الهدى للتعليم والتنمية البشرية الديني بالقطيف، ورئيس لجنة المناهج فيه.
- عضو مؤسس لبيت الحكمة الثقافي بالقطيف.
- عضو مؤسس للجنة مؤلفات العلاّمة الفضلي بالقطيف.
- عضو بالقسم الثقافي بمكتب سماحة الشيخ حسن الصفار.
- له مقالات وبحوث عديدة و متنوّعة في الموضوعات الفكريّة و الفقهيّة و اللّغويّة و الإنسانيّة.